رواية

شمسٌ قبيل الفجر

سعيد أبو نعسة

كتوباتي
kotobati

شمسٌ قبيل الفجر

رواية

بقلم:

سعيد أبو نعسة

الكتاب: شمسٌ قبيل الفجر.

النوع: رواية.

تأليف: سعيد أبو نعسة.

الرسم: عزيز بومهدي.

تصميم الغلاف: مكتبة كتوباتي.

التنسيق الداخلي: مكتبة كُتوباتي.

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي.

www.kotobati.com

kotobati@gmail.com

إصدار 2022.

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

كتوباتي تخلي كل مسؤولياتها من أية سرقة أديبة في هذا العمل.

الفهرس:

المقدمة : 5
بطاقة تعريف. 9
بدء الرحلة. 15
عبدو والمساجد الثلاثة. 22
(عبدو) صباح الجمعة المباركة. 26
عبدو في الميضأة. 29
عبدو يصلي الجمعة. 32
كيف تُفحِم شيخا؟ 37
عبدو في المقبرة. 42
عبدو و العزاء اليعربي. 45
عبدو يعود إلى قاعة العزاء 48
عبدو والعلوم الضرورية. 51
الحُجة الدامغة 55
عبدو في المؤتمر. 60
عبدو وأبرهة. 64
عبدو في قاعة اليونسكو 67
عبدو ومسجد مختلف 72
سهرة عرب. 76
معرض الكتاب يتثاءب. 80
عبدو في المقهى الشعبي. 83
عبدو خارج الجماعة 86
عبدو والمذهب الحق 88
عبدو والحوار الرشيق. 93
عبدو والعوانس. 97
في خانة اليَكّ 101
السر الأعظم. 104
عبدو الوقح. 107
في وداع المقهى 110
عبدو المشكور 113
الكذب الحلال. 116
الفخ. 119
للباطل جَولة. 122
بلاء أم ابتلاء ؟ 127

لقاء الأحبّة. 131
أبو الأحرار 135
الفن يجمع. 139
قصة اللاشيء. 143
كيف تصنع عميلا؟ 147
حيص بيص. 150
ناس بعزاها، وناس بهناها. 154
جوجو في غرفة التوقيف 157
من الدلف لتحت المزراب. 163
الكوابيس 167
دموع 171
فنجان قهوة 174
عبدو يبُقّ البحصة 179
طَق حَنَك 184
الملاعنة 189
الحَربوق. 195
حين تجتاز الخطوط الحمر 200
اللي يجرّب المجرَّب عقله مُخرَّب. 205
إنهم هناك. 208
الميزان 211
الهدم والبناء. 214
الخيط الأول من الفجر. 218
الحقيقة في الحديقة 222

المقدمة :

عزيزي القارئ.

ولماذا لا أقول عزيزتي القارئة؟

سيجيبني أربعمئة مليون عربي:"لأنك إذا قلت عزيزتي، فكأنك توجّه الخطاب للإناث تحديدا !!".

حسنا فكذلك إذا قلت عزيزي فأنا أوجه الكلام للذكور تحديدا.

باختصار مجتمع ذكوري بامتياز.

دعني أشكرك وأنت تقرأ هذا الكتاب فالقارئ هو الوجه الثاني للإبداع.

يتفذلك معظم المبدعين:" أنا لا يهمني من يقرأ، فإنما أكتب للتعبير عن مكنونات ذاتي من مشاعر وأفكار جَنيتها من تجارب الحياة وثقافة مَن قرأت لهم".

هههه ها أنت تعترف بأنك قرأت لغيرك واستفدت. وغيرك سيقرأ إبداعاتك العصماء.

سأشكرك معانقا إياك، لأنك ستتحمل مضامين هذا الكتاب العجيب الغريب.

أَصدَق وصف له (مخلوطة).

رواية تسرد أحداث رحلتين متوازيتين معا، الرحالة فيهما شخص واحد. كيف يمكن أن يحدث هذا؟

خذها كما اندلقت من مخيلتي. فإن لاقت منك رضى، وعببت منها المتعة عبًا، فبها ونعمت. وإن اكفهر وجهك وعبستَ وتولّيت عنها، فبها وبئست !!

كل الروائيين، يخلقون الشخصيات ويروحون يحركونها على مسرح الحدث كما يشاؤون، إلا هذه الرواية، فقد تمرد (عبدو) وخرج من بين دفتيها، ليدفعني من الخلف إلى حيث يريد، إلى جزيرة عاش فيها حي بن يقظان بعد أن أوجده ابن طفيل.

جزيرة عجائبية، تُغرقك في مستنقع، فتنجو لتغرق في آخَر.

ربما تصل في الختام إلى ما توصل إليه عبدو، فتنسى العناء والتعب، والخوف والقلق. تتنهد مغمضا عينيك، مالئا رئتيك بالنسيم العليل، ثم تفتحهما، فإذا أنت في الفردوس المفقود. وربما تلعن الساعة التي أضعتها في القراءة.

لا بأس، تذَكّر أن الورقة التي تلتقطها في الطريق قد تنقل إليك فكرة جديدة لم تألفها من قبل، فلا تتسرع.

قد يخطر ببالك هذا المثل وأنت تقرأ الرواية(من الدلف لتحت المزراب) وقد تذرف دمعة أسى، وربما تبتسم ابتسامة كوميدية سوداء.

حقيقية لست أدري، ما هو موقفك بعد أن تنهي القراءة.

سيقول من عنده علم من النقد:" يطغى الحوار الفكري، في تقريرية تبدو مباشرة أحيانا".

صحيح جدا، فهذا هو الهدف مع سبق الإصرار والتعمد. ذاك أن التلغيز وجعل الأفكار تسبح في فضاء استعاري يرهق القارئ، ولا يجعل السرد منطقيا من رحالة ألماني ولج عالم اللغة العربية حديثا.

سيضحك النقاد:" ترقيع تبريري غير مقنع".

حسنا إن هو إلا ترقيع يقابل ترقيعات رجال الدين (حاشا السامعين) فاقبله دواء مُرا، لمرة واحدة فقط. ألم تسأم الروايات ذات المواضيع والأساليب المكرورة؟

ومن الآن أقول لك:"إن كنت مغرما بروايات دستويفسكي فلن تعجبك روايتي هذه، وإن كنت من أنصار أدب ما بعد الحداثة، فلن تجد ضالتك عندي، فأنا لست من قراء الطلاسم، فكيف أكتبها؟ وإن كنت من عشاق روايات جبل الجليد الذي لا يظهر منه إلا القمة، بينما يخفي في القاع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمرحبا بك وتفضل بالدخول، شرط أن تترك مسلماتك الموروثة هنيهة، وتتدبر في المشاهد والأفكار بعقل منفتح. وأعِدك بأنك ستعثر على أجوبة أظنها مقنعة لتساؤلاتك المكبوتة، وسترتاح في الجنينة، حيث السعادة والفرح والرضى ببسيط الأفكار.

قد تحب عبدو وقد تكيل له اللوم والنقد، ولكنك إن تجرّدت من عباءة الجدود، وحطمت القيود فلسوف تَقبل عبدو كما هو، لأنه يقبلك كما أنت. ربما تكتشف أنك عبدو، وأنا عبدو، وهم عبدو. لسوف ترى النور، بل وستتقلّب في نعيمه، حتى تقول:"مرحى بالموت بعد أن عرفتُ، ونعم التعبُ الذي تعبتُ بعد أن وصلتُ".

ستسأل عبدو:" هل لك أن تصف لي هاتين الرحلتين بإيجاز؟

سيبتسم هازئا :"هذا دأبك، تعشق الملخصات، وعصارات التجارب، كي تتناولها كحبة حلوى، سرعان ما تزول حلاوتها، لأن ما ينال بسرعة، بسرعة يزول".

****" حسنا عبدو دعني أطرح السؤال بصيغة أخرى :" كيف تشعر بعد عناء الرحلتين ؟".**

++"أشعر أنني الآن أنا".

****:" حبيبي عبدو، لقد عرفتَ فلزِمت، فهل لي أن أعرف؟سيطبطب على كتفك:" المعرفة لا تُلقّن، إقرأ تعرف".**

****

بطاقة تعريف.

هارالد إنسان عادي، ليس بدعا من البشر، وُلد لأبوين كاثوليكيين في برلين، فنشأ ملتزما مثلهما، يتمّم واجباته الدينية بتقديس واحترام.

زرعا فيه أحسن الخلق، وأرفع السلوك، أَحبَ البشر دون تمييز، وصادَق في المدرسة وكلية الحقوق مختلف الجنسيات والألوان، تعرّف على دياناتهم بإيجاز.ثم راح يقرأ عنها بتوسّعٍ الرافضِ للتقليد، والمقبل على الفكر الآخر بروح وثابة وعقل منفتح.

يروح يعلق على هامش الكتاب برأيه، فيتكوّن لديه كتابٌ جديد، حصّل ثقافة دينية وفلسفية ثرّة، ولكنه ككل المتدينين ظل متسلحًا بخلفية المذهب الذي غُرس فيه، منه يستقي وعليه يقيس، فأعرض عنها جميعا، مكتفيا بدين الجدود الذي قيل عنه أنه الصواب المنجي والمخلّص الأكيد.

كان مثالا للمحامي النزيه النصوح، وقدوة لكل أب يربي أبناءه على الفضيلة، ولكن ليس الذكر كالأنثى، فابنته الوحيدة كما غالبية البنات بيتوتية، تجد فيه الراحة والأمان، بعكس ابنه الشاب الذي يقضي معظم يومه مع أصدقائه، يتسكعون بسيارته المتواضعة، التي اشترتها له أمه، هدية تسببت بتراجع مستواه الدراسي وجعلته نهبا للسكر والسهر. سلوك جعل هارالد في شجار دائم مع زوجته.

(الطلاق هو الحل) جملة واثقة أكد بها هارالد موقفه النهائي. لم تمانع زوجته، ولكن الكنيسة مانعت بشدة، وصفعت هارالد بسلسلة إجراءات كنسية معقدة تُيئّس اليأس نفسه من المحاولة، فطلبات الطلاق تُرفع لبابا الفاتيكان الذي يدرسها مع لجنة مختصة، وغالبا ما يصدر القرار بالرفض.

مازحَه صديقه أبوشفيق البيروتي:" أسلِم يا زلمي بتنتهي قصتك بكلمتين (أنتِ طالق)".

لم يكن هارالد بهذه السذاجة، كي يترك دينه من أجل مصلحة رخيصة، مهما كان مضطرا لها، فهذا منتهى البراغماتية.

هو لا يعلم من قال (المصائب لا تأتي فرادى) ولكنه لمسها حين هاتَفته إحدى المستشفيات:" عفوا، مع شديد الأسف لدينا خبر سيء لك. أجرينا لإبنك عملية دقيقة إثر حادث سيارة وهو في العناية المركزة بحالة خطرة".

من خلف ساتر زجاجي وجد ابنه مطوقا بالأنابيب وفوق رأسه كاهن يتمتم ويُصلّب.

موقف أليمٌ سرعان ما أدى إلى انهيار هارالد وعائلته، بعد أن غطت الممرضة وجه المرحوم، فخرج الكاهن يجرّ أذيال الخيبة، مع قفّة أدعية لم تنفع.

صديقه أبو شفيق كان حاضرا، فقال بثقة:" خذ عائلتك إلى البيت، وسأتمم كافة المعاملات وإجراءات الدفن، وأخبرك بالموعد".

كان هارالد بحاجة ماسة إلى هذه الكف الحانية التي ما تركته لحظة حتى في قاعة العزاء، فكنت ترى أبوشفيق يستقبل المعزّين ويودعهم حتى الباب، ويقدّم الضيافة لهم مبتسما.

ليس من عادة الألمان طزع المواعظ الدينية في مناسبات العزاء، ولكن أبو شفيق أشاع الخبر بين أصدقائه المسلمين، فجاؤوا زرافات ووحدانا، يواسون هارالد محمَّلين بالتمر والقهوة وقناني المياه، ومع كل فوج يحضر شويخٌ يتقن تنميق مواعظ العزاء.

لاحظ أبوشفيق شدة تأثر هارالد وحزنه البالغ على ولده الوحيد، فقال له:" صديقي هارالد، لِم كل هذا الحزن؟ نعلم أنه وحيدك، ولكن عندنا كمسلمين لا موت، بل حياة متصلة، وستقابل ابنك في الجنة، أما الموت فهو استراحة بين حياتين".

فتح هارالد عينيه على اتساعهما، وكأنه يسمع هذا الكلام لأول مرة.

سلوك شلة أبو شفيق ترك عظيم الأثر في نفس هارالد، الذي راح يقارن بين العزاء الدبلوماسي الجاف عند الألمان وما لمسه من مواساة اجتماعية رحيمة عند المسلمين، تضج بالمحبة والحيوية والكرم وصدق الإيمان.

مالَ إلى أبوشفيق:"أحضِر لي كتيبات مفصلة تشرح الإسلام".

طار من الفرح، كيف لا، وربما أسلم هارالد على يديه، ونوّله من الأجر والخير أكثر مما طلعت عليه الشمس؟

حميمية العلاقات البشرية الصادقة هي التي لاحظها هارالد، وهو يقرأ السيرة النبوية وتفسيرا مبسطا للقرآن. دعم الفكرة لديه ما لمسه طيلة أيام العزاء، فقرر الدخول في الإسلام.

عانقه أبوشفيق عناقا بيروتيا مبالغا فيه، وهو يتلعثم في الكلام:"هلق قبل بكرا، بتروح تغتسل من الجنابة متل ما راح أعلمك، وبنيّة الدخول في الإسلام، ومنروح سوا عالمركز الإسلامي، بتعلن إسلامك هونيك حسب الشرع الحنيف".

++" أوكي، وماذا بشأن الطهور؟

****" نقطش لك إياها بعدين هههههه".**

ينقلب الدعاة إلى ما يشبه الملائكة عندما يقف بين أيديهم شخصٌ راغب في اعتناق الإسلام، وُجوه مبتسمة تطفح بالإيمان والتقوى، وألسِنة هادئة أشبه بنبرات الأم تيريزا.

أعلن الشهادتين حسب الأصول، و قاده رئيس المركز للتعرف على قاعات التدريس، فسجّل اسمه فيها جميعا.

التقاعد من العمل نقمة عند معظم البشر، لكن هارالد وجده نعمة النعم، فأتقن العربية قراءة وكتابة في عامين، وغاص في علوم الدين التي أقنعه الشيوخ بأنها هي العلم اللدني الضروري. تعمّق في التاريخ الإسلامي ونشوء الفرق، الظاهر منها والباطن، توقف طويلا مع العلماء والمفكرين الذين كُفّروا وقتلوا شر قتلة، فتعجب كيف تَغتال أُمة مبدعيها؟ ثم راح يتمعن في فكرهم كي يعرف السبب، قرأ الفلسفات على أنواعها بإيجاز، وقارن بين الأديان، فخرج بزبدة فكرية راسخة، أصلها ثابت وفرعها يظلل كل عاشق فكر، وباحث عن الحقيقة. أحبّ الأدب العربي ولم يترك حتى الزير سالم وتغريبة بني هلال، وسهرات الحكواتي التراثية الثقافية الماتعة، وكان كالعطشان الذي يشرب من البحر، حتى صدق عليه الوصف فأر مكتبة.

خلال تلك المدة لازمه صديقه أبوشفيق، ويسّر له المعسّر، وتجشّم الصعاب لتأمين الكتب والمراجع، التي عكف عليها هارالد حتى فقد درجتين من بصره.

ذات سهرة بادَره صديقه:" معقولة يعني مسلم وإسمك هارالد؟ روح نقي لك اسم إسلامي. تخيّل يوم القيامة ينادوك هارالد عند حوض الرسول عليه السلام !!".

++"أوكي، ماذا تقترح؟".

****"عبد السلام، اسم رقيق وأنت من محبي السلام".**

++" حسنا اسم جميل ومعبر".

" بس انتبه، نحنا العرب ما عندنا صبر وتحمّل حتى ننطق إسمك كاملا، عطول كل واحد إسمو مركب من عبد + اسم من أسماء الله الحسنى نناديه عبدو، فلازم تتحمل وما تزعل".

++" أوكي الإسم لا يقدم ولا يؤخر، عبدو عبدو، المهم الجوهر".

****

بدء الرحلة.

فرز عبدو ملابسه، فلم يحتفظ منها إلا بالوقور غير المبرز للأعضاء بشكل لافت للنظر، وترك لحية معتدلة الطول، يعلوها شارب شبه محفوف.

فرِح أبوشفيق بهذا الإنجاز ، وكان يستغل اللقاءات بينهما في شرح فضائل الإسلام دنيا وآخرة، وأن مَثَل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. وأن العبادات في ديار المسلمين ألذّ طعما من تلك الجافة الباردة في ألمانيا، حيث لا تزاحم ولا تراحم، فرمضان العربي يغدو كرنفالا جماعيا تتمنى معه أن يكون العام كله رمضان. والحج رحلة روحية عزّ مثيلها.

كان عبدو يرقب تقاسيم صديقه الخاشعة، حين تتهدل عضلات وجنتيه، وتترقرق عيناه بلآلئ التقوى، وهو يصف التراحم والتكافل الاجتماعي، والتفاهم العابر للمذاهب المترفعة عن صغائر الخلافات التاريخية، والتشنجات الفقهية البسيطة التي عفا عليها زمن التطور والانفتاح. وكان عبدو يهز رأسه، مجاملا صديقه.

على عادة العرب الأقحاح، دعا أبوشفيق صديقه لمرافقته إلى بيروت، فوافق على الفور.

****" أهلا وسهلا بكم. أنا رايح أحجز التذاكر".**

إذا قلت لكم إن أبوشفيق سعِد بموافقة عبدو، أكون كاذبا، لأنه ابتسم ابتسامة دبلوماسية صفراء، مفتعلا الترحيب بالفكرة.

وإذا أكدت لكم أن عبدو طار من الفرح للتعرف على دار من ديار الإسلام أكون صادقا جدا، ذلك أنه هرع إلى البيت يخبر زوجته وابنته بهذا الخبر السعيد، ثم توجّه إلى المقبرة لوداع الراحل فلذة كبده.

جلس أمام القبر تخنقه العبَرات، أسفا على فرحة لم تكتمل، وسعادة فقَدها مبكرا.

رفع الموقف ضغطه، فجلس يتنسم الهواء العليل، تحت شجرة سرو ضخمة. لفَته قبران متجاوران أمامه. أحدهما يعلوه حوضٌ زهور صفراء كثيفة شُكّلت على هيئة حروف واضحة للقارئ(ساندرا). والثاني يعلوه شاهد رخامي فاخر قرأ عليه:(هانس ديتر ستينوزا).

استغرب تشابه الأسماء، وهو يعقد كفيه خلف رأسه مستندا إلى جذع الشجرة، يهفهف حوله عبق السرو، مرتحلا مع هذا المشهد الواعظ، فأخذه النوم في إغفاءة لذيذة، وراح ينصت باهتمام إلى الحكواتي في مقهى الرواد:

()()"يا سادة يا كرام، أُحدثكم الليلة عن بطل همام زار البلاد من خارج النجاد، فصلّوا على خير العباد.

الشوق والتوق الذي شدّ عبدو لبيروت، لم يكن مصدره منشورات سياحية، تبرز الجمال الأخاذ، والآثار

العريقة، بل لسان صديقه أبوشفيق البيروتي، الذي صوّر له لبنان جنة أرضية. (لبنان يا قطعة سما ع الارض ثاني ما إلا).

كان يهز رأسه ويرفع حاجبيه إعجابا بحديث صديقه عن الكرم واللياقة وحسن الاستقبال، وطيب المعشر، والتعايش بين تسع عشرة طائفة ومذهبا دينيا.

غالبية المسافرين من فرانكفورت إلى بيروت لبنانيون يقيمون في ألمانيا، يحملون الجنسية الألمانية شكلا فقط، لكنهم في الجوهر محافظون على انتمائهم الوطني وعاداتهم العريقة.

ما هو مصدرها؟ العروبة أم الإسلام، أم أصولهم الفينيقية الكنعانية، أم غير ذلك من أصول عرقية، أم خليط من ذلك كله؟ مسألة هامشية الآن.

المهم، بلا طول سيرة، التدافع أمام ميزان شركة الطيران لفَت نظر عبدو، فسأل صديقه:" لماذا يتدافعون هكذا؟".

راح يبرر له: "بعضهم مريض او مُسن أو حامل أو من ذوي الاحتياجات الخاصة".

قاطعه:" هذه الحالات لا نتركها نحن الألمان تتعذب هكذا، بل نسارع إلى مساعدتهم وتسهيل معاملاتهم". عرف من أصدقائه أن اللبناني والعربي عموما نافد الصبر، لا يتحمل وقفة الطابور بدءا من السوبرماركت، مرورا بعجقة السير، حين يحلو لك أن تشهد العراك

الكلامي واليدوي أحيانا، وتسمع سيمفونية تعزفها أبواق السيارات، وانتهاء أمام شبابيك المؤسسات الحكومية.

كل هذا كوم، والتدافع للصعود إلى الطائرة أو مغادرتها كوم آخر، لأنها لن تُقلع قبل أن يصعدوا جميعا، مشهد أضحك عبدو من الأعماق.

وأضحكه أكثر منظر المسافرين يتراكضون في سباق محموم نحو شبابيك ختم الجوازات. كان يسير بشكل عادي، فوصل ليجد نفسه في ذيل الطابور.

لم يتضايق، فالألمان معتادون على احترام الدَور، وتحمل مسؤولية عدم تنظيم الوقت وحسابه بدقة، إن كانوا مستعجلين لقضاء أية مهمة، ولا يعرفون الروتين الإداري المجبول بالرشوة والمحسوبية والواسطة، بينما العربي لا يمكن أن يعترف بأنه المسؤول عن فشله، يروح يلقي اللوم على الغير، الاستعمار والصهيونية، والأطماع الخارجية، ويستحيل أن يعزو فشله إلى العقل الجمعي العربي المعجون بالقهر والتسلط والفساد و الأنانية المقيتة، ونفخ الذات العربية، وبالتدين المظهري الكرنفالي القائم على تمجيد التراث والجدود.

سمع عبدو شابا يقف أمامه يعدد بطولاته الجنسية، ويروي لأبو شفيق مشكلته مع زوجته اللبنانية، التي أتحفَ الواقفين باسمها وشكلها ولونها ومتطلباتها التي لا تنتهي، وكيف ارتاح بعد تعرفه على كاترين الألمانية، ملكة الجمال على حد زعمه، كان يتحدث بثقة مرفقة

بحركات عصبية وصوت مرتفع:" خمسين ألف مرة قلتلها ما بحب العجقات وعزايم القرايب".

و هذه معلومات هامشية أيضا.

()" لأ مش هامشية، هيدا لب الحكاية، أبو بسّام، طَوّل المشهد قدّ ما بدك ما دام فيه حريم، بس يا عيب الشوم عليه، واطي، بيحكي عن عرضو وشرفو قدام الناس".

()()" أرجو عدم المقاطعة، والتعليق فالحكاية طويلة نوعا ما. المهم يا سادة يا كرام، وصل دور عبدو فقدم جواز سفره إلى الموظف. نظر إليه من ساسه إلى رأسه، ثم ابتسم له:

**** ألماني؟**

هزّ رأسه:" نعم، جنسيتي مذكورة في الجواز".

****" أول مرة بتشرّف ع لبنان؟".**

++" نعم".

****" أهلا وسهلا، راح تنبسط كتير، لبنان سويسرا الشرق".**

ثم تغيّر لونه فجأة وهو يقرأ الاسم .

****" الإسم عند الولادة هارالد. الإسم الحالي عبد السلام. عنجد إسمك عبد السلام؟". سأله باستغراب.**

++ ابتسم له" نعم".

" مسلم يعني، وحضرتك ألماني ألماني الأصل، أو عربي متجنس هونيك؟".

++" بل ألماني ألماني".

انفرجت أساريره، فامتدت بَسمتُه حتى شحمتَي أذنيه. كان عبدو يسمع بأن المسلمين يبتهجون كثيرا، عندما يسمعون خبر إسلام شخص ما، حتى ولو كان فردا عاديا وربما أمّيا، يعمل طبالا حول رقاصة، ولكنه تيقّن الآن.

تحليل هذه الظاهرة بسيط جدا، فالابتهاج لهذه الدرجة يعكس عدم اليقين بما يعتقده المسلم، فهو يرغب بالتأكد من صوابه وأنه الدين الحق والوحيد، وهو يعتقد أن الدين حزب ويجب تكثير أعضائه.

" وشو اللي خلاك تأسلم؟".

++" الموضوع متشعب، والطابور ورائي طويل، لا يسمح بشرح ذلك". أجاب عبدو .

فتدخل أبوشفيق رافعا صوته:" أنا..أنا السبب، أنا اللي أقنعتو بالإسلام".

لم يكترث الموظف بأبي شفيق، فسأل عبدو وهو يختم جواز السفر:" مسلم شو؟".

++" لم أفهم قصدك". رد عبدو.

فارتفع صوته:" يا خي، المسلمين ألف طائفة، حضرتك شو؟ سنّي، شيعي، علوي، درزي، إخوانجي، داعش، ضرّاب السُخن، شو؟".

قَلب عبدو شفته مع هزة رأس، وهو يتناول منه جواز السفر قائلا بثقة:" لا دخل لك بمذهبي".

كانت هذه صدمته الأولى، وكان يظنها هامشية أيضا، وإن بعض الظن إثم.

****

عبدو والمساجد الثلاثة.

غادر عبدو مطار بيروت، تحت وطأة الصدمة الأولى، ذاهلا عما حوله، وهو يستمع إلى ترقيعات صديقه أبوشفيق البيروتي:" ما تتضايق عبدو حبيبي، هيدا الموظف طائفي متعصب، أخو(....) مش كل المسلمين هيك، كل مَن على دينو، الله يعينو".

هز عبدو رأسه، فتلاطمت في ذاكرته حفنة من الأسئلة، أعاد ترتيبها بدقة، مع قرار نافذ بالبحث عن أجوبتها لاحقا.

ترك عبدو دين قومه، ولكنه لم يترك عاداتهم المهذبة، فسأل صديقه عن فندق متوسط النجوم كي ينزل فيه.

**" فندق؟ فندق شو؟ عليي الطلاق من أم شفيق، طلاق ينطح طلاق ما بتنزل إلا ببيتي، عندي شقة صغيرة، عاملها مكتب، بقعد فيها لوحدي، بروّق راسي، وبكتب فيها بهدوء".

وافق عبدو على مضض.

ولأن أبو شفيق يسكن في منطقة الباشورة العريقة بأصالتها التراثية، فقد سارع عبدو إلى الجلوس على الشرفة، متأملا المباني القديمة، وحركة الناس غُروب يوم الخميس، يتنسم هواء معتدلا عليلا، قلّما يجد مثله في بلاده.

انطلق أذان المغرب من مسجد عن يمين البناية، فخشَع وهو يردد في سِرّه كلمات الأذان المنسابة على وقع أنغام مؤذن الحرم. مرّت دقيقتان بعد الأذان، فانطلق أذان مُشابه للأول من المسجد المقابل للبناية، هز عبدو كتفه:" لا مشكلة قد يكون أحد المؤذنَين أخطأ في توقيت رفع الأذان". ثم شرع يُسبحِل ويُحمدِل عدة دقائق، فانطلق أذان ثالث من مسجد على يسار العمارة، تابَعه عبدو، فلاحظ فيه زيادات لم يعهدها في الأذان الذي يحفظه.

قدِم أبو شفيق نحوه يصفر والحُبور يملأه، فأشار إليه عبدو بباطن كفه كي يتوقف عن الصفير :" أوّلا الصفير من الشيطان، ثانيا تصفر في وقت الأذان بدل أن تُردد وراء المؤذن كما علّمتَني؟ ثالثا سمعتُ الأذان ثلاث مرات في أوقات متباعدة زمنيا، وآخرها مُطعّم بزيادات بعضها يُعلن شهادة ثالثة بعد الشهادتين".

ابتسم أبو شفيق وهو يطبطب على كتف صديقه:" يا زلمي، شغلة بسيطة ما بتقدم ولا بتأخر، خلاف فقهي لا يمس العقيدة".

أخذ عبدو يُبربر:" أوكي فقهي أوكي، شهادة ثالثة وتقول لي فِقهي".

خرجا إلى المسجد. أبوشفيق يشرح الفوارق بين المساجد الثلاثة بإسهاب ممطوط، وعبدو يهز رأسه ساخرا.

اتجه عبدو شرقا نحو مسجد اليسار، فشدّه صديقه من ذراعه:" تعا لهون، هيدا مش إلنا، لإخواننا الشيعة".

نظر عبدو باتجاه المسجد المقابل وهو يهمُّ بالتوجه إليه، فشدّه أبوشفيق وكاد يقُدّ قميصَه:" يا خيي شو بيك؟ إمشي جنبي مش قدامي، هيدا كمان مش إلنا، لفرقة سُنّية طازة لانغ عمرها خمسين سنة، بس مش مثلنا".

نفخ عبدو من مِنخرَيه ابتسامة هازئة، ثم ترك صديقه يهرِف مُكملا شرح الفوارق البسيطة، التي لم يلتقط منها عبدو إلا النقاط الجوهرية، نقاطا نقَشها في خلايا الذاكرة مع كوم الأسئلة السابقة، فأثقلت دماغا، زادَه ثقلا إمامٌ راح يطيل السجود، رغبة في حصد حسنات التُّقى والورع. تطويلٌ تحمّله عبدو رغم أنفه الذي كاد يسده بيمينه، لولا أن تذكّر أن ثلاث حركات يبطلن الصلاة.

على الشرفة اقتعد أبوشفيق كرسيّه، بِكَرش مندلق، ممسكا بخرطوم أرغيلة عجمية التبغ، وراح ينفخ الدخان بتلذذ، فاعترض عبدو:" أَذكرُ أنك نصحتني في ألمانيا بترك التدخين، لأنه مُحرّم عند بعض المذاهب، مكروه عند آخرين، وفي الحالتين هو مُضرٌ بالصحة، على مبدأ (لا ضرر ولا ضرار). أنا ألتَزِمُ وأتركه، وتعود إليه أنت؟".

نفض أبوشفيق كفّه اليمنى، غامِزا بعينه:" إنسَ يا زلمي، يحرق حريشك ما بتنسى شي، على كل شغلة

بتدقّق، كله رايح خيي عبدو، نَتُّوفة دُخّان بتحيي الإنسان هههههه".

انطلقت سورة الكهف من مسجد اليمين، تلاها أناشيد نبوية تحتفي بليلة الجمعة من المسجد المقابل، وتلاهما دعاء كُميل من مسجد اليسار. كانت الأصوات هادئة في البداية، ثم بدأت تعلو وتعلو وكأن في الأمر تبارُزا كَيديا، فما كان من عبدو إلا أن أطبق كفيه على أذنيه ودخل إلى غرفته متأففا، فبَدا كأنه يُشقّع بالألماني.

لحق به صديقه متعثرا بالأرغيلة، وقبل أن يفتح فمه بحرف، عاجله عبدو بكلمات سريعة غاضبة:" لا تبدأ في الترقيع والتبرير، هذا إزعاج كيدي متعمَّد. أفهَمُ أن الذِكر داخل المسجد مضاعف الأجر، فهل من الضروري أن تتنافس المايكروفونات فتختلط الأصوات في الخارج ما بين قرآن ونشيد ودعاء؟".

ابتسم أبو شفيق كالمعتاد، مُحاولا التفسير، فمدّ عبدو ذراعه، كاتما فمَ صديقه:" ولا كلمة، لن تُقنعني مهما رقَّعتَ". ثم ارتمى على سريره، طالبا البقاء وحده، فانسلّ صديقه مبعوص المزاج، يجُرّ أذيال الإحباط، وقبل أن يغادر، سمع عبدو يُتمتم بصوت شبه مسموع:" هذه هي صدمتي الثانية".

****

(عبدو) صباح الجمعة المباركة.

دبابيس الأسئلة وخَزَت ذاكرة عبدو، تآمرت معها حركة أبوشفيق في البيت، وقهقهات الجيران على الشرفات، مترافقة مع كركرات الأراغيل المتراقصة مع دخان الفحم، فحَرمته لذة النوم ليلة الجمعة.

انتزع الدبابيس مُقنعا نفسه بتأجيل التفكير، فغفا لسويعات، تخللها إجفال متكرر، سببه أزيز رصاص عرس هنا، وزمامير سيارات هناك، وسيمفونية نشاز من شخير صديقه في الغرفة المجاورة، كوابيس لم تكن تنتابه في ألمانيا.

قبل الفجر بنصف ساعة صدحت المآذن بالتسابيح، والأناشيد النبوية، زيّنها تتابع الأذانات الثلاثة، فنهض عبدو يستعيذ بالله من شياطين الإنس والجن.

راح يهز صديقه بلطف محاولا إيقاظه للصلاة، ففشل، ثم توقف خشية إزعاجه وقطع أحلامه الوردية.

أفاق باكرا كما تعود، جهّز القهوة وطعام الإفطار، وقعد ينتظر صحو الغافي، لكن الشخير أقنعه بأن الانتظار عبث ومضيعة وقت.

تمام العاشرة أشرَق أبوشفيق مُكشرا في وجه عبدو:"ولو يا زلمي بتتركني نايم وما بتصحّيني صلّي معك؟".

أمال عبدو برأسه يمينا ويسارا:" حاولت مرارا إيقاظك، فلم أُفلح".

**"ولا يهمك، بسيطة، منقضيه، الدين يُسر، عن إذنك فايت أتحمم، سُنّة الجمعة".

خلال فترة الصداقة الممتدة، اعتاد عبدو سماع تشقيعات نابية من صديقه، لسبب وبلا سبب، لكنّ ما وصل إليه من الحمّام كان مختلفا جدا، كان للدولة بسبب انقطاع المياه.

خرج منرفزا يتمتم ويبربر:" مش بس الدولة السبب، كمان المتجوزين، قال ما بيحلا لهم(الن...) إلا ليلة الجمعة".

قهقه عبدو حتى بدت نواجذه:" يا أخي، لأن الجمعة عطلتهم وهذا أمر طبيعي، سنتوضأ في المسجد".

**"عبدو، قوم جهّز حالك، لازم نروح بكير عالجامع، بلكي مناخد أجر ناقة، لأنو إذا تأخرنا بيطلع لنا دجاجة". قالها أبوشفيق وهو يضحك، فسايره عبدو بابتسامة صفراء.

عبدو جاهز منذ الصباح، أخرج قنينة عطره المفضل، رشّ منها رشّتين خفيفتين، ثم جلس يقرأ سورة الكهف.

أقبَل عليه صديقه محشورا داخل گلابية بيضاء، تُبرز تضاريسه المنتفخة، معتمرا طاقية مُخرّمة بيضاء، تَسبقه رائحة المسك.

كاد عبدو يتأفف من وطأتها النفّاذة، لكن صديقه عاجَله باللوم والتقريع:" راشش برفام أُلماني مخفف بالكحول؟ يعني ما بدك تقتنع إنو الرسول عليه أفضل

الصلاة والسلام، قال:(حُبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء وو؟).

ابتسم عبدو ابتسامة خفيفة - لكلمة نساء - ثم قال:" ربما لو بُعث الرسول عليه السلام اليوم، لاختار عطري الألماني، وحمل الهاتف النقال، وأنشأ مجموعات دعوية عبر الانترنت وواكب العصر ووو".

قاطعَهُ أبوشفيق:" عن إذنك إجاني إتصال ضروري، لحظة بليز".

مكالمة ممتدة مسموعة من الغرفة المجاورة، لم تخلُ من القهقهة، والشتائم، اختلط بها من الخارج آيات قرآنية مزَجَتها المآذن الثلاث، ثم الأذانات المتتابعة.

خرج أبوشفيق على عَجَل، فوجد عبدو يذرع الغرفة جيئة وذهابا، يحمل دفتر ملاحظات صغيرا، ثم توقف ليكمل الكتابة. مطّ أبو شفيق رقبته نحو الدفتر، فقرأ رقم ٣ لكنه لم ينتبه لكلمة صدمة.

لاحظ عبدو مسارعة صديقه للخروج، فربَت على كتفه:" فات الأوان فات، لن ننال حتى أجر الصوص. الخطبة بدأت، وربما لا نجد مكانا يليق بنا إلا قرب الأحذية".

****

عبدو في الميضأة.

كان صوت الخطيب يلعلع في الخارج، حين همّ عبدو بدخول المسجد. تَضاحَك مَن خَلفَه، ليس فقط لأنه تعثّر وكاد يستقبل العتبة بوجهه، بل لأن سبب التعثُّر كان زعيق أبو شفيق:" انتبِه يا عبدو، دخلت بقدمك اليسرى".

وجد على المدخل خليطا من أحذية وقباقيب وشحاطات شتّى، التقط لها صورة بكاميرا الذاكرة ثم حمل حذاءه الجلدي الفاخر، ووضعه على رفٍ شبه خال من الأحذية.

تَبِع صديقه نزولا نحو الحمامات وحنفيات الوضوء، فانزلقت قَدمه على الدرج، لكنه عرف كيف يتفادى الإصابة، فحمَد الله، رغم اعتراض صديقه بعدم جواز ذكر الله في أماكن الخَبَث، حيث يقطن إبليس، والجن بشكل عام، فأشار عبدو إلى رأسه:" إبليس هاهنا، ثم إنني إذا ذكرت الله تهرب الشياطين".

انتعل عبدو قبقاب الوضوء، وراح يطقطق به نحو المرحاض، ضاغطا أنفه بين السبابة والإبهام، فناداه صديقه:" تعال، تعال، الحمد لله إني فتحت الحنفية قبل ما تعملها جُوّا وما تلاقي مَيّ، ساعتها إذا ما معك محارم، راح تستغني عن كلسونك هههههه".

++"أوكي أتيمّم. أصلا انا كنت متوضئا حين قرأت سورة الكهف، ولكنني أخرجتُ ريحا بعد ذلك". أكّد عبدو.

**" نفس الشي، الريح يُفسد الوضوء". رد أبوشفيق بثقة.

++"عندنا بألمانيا نقرف من التجشؤ أكثر من رائحة الفساء، خاصة رائحة الثوم والبصل، فلماذا التجشؤ لا يُنقض الوضوء؟". تساءل عبدو.

**"هيك ما بعرف، المهم بخصوص التيمم، الشيوخ علمونا(إذا وُجد الماء بطل التيمم). خليك هون، طالع إشتري قنينة وراجع".

لم يُطق عبدو الموقف، وقد كاد يختنق، فضرب بكفيه على الحائط، ثم مسح الوجه والكفين.

الشاب المتأفِف تابَع الحوار و شاهَد ما فعَله عبدو، فسأله:" لماذا تيممت، ألن تنتظر رفيقك حتى يُحضر القنينة؟".

قال:" لا ". ثم صعد .

وصل أبوشفيق لاهثا، فعاجَله الشاب:" عمو، توضأ بنصف القنينة وأعطني النصف كي أتوضأ".

**" هيدي يا دوب تكفيني".

--" حسنا يمكنك تحقيق واجبات الوضوء دون السُنن". رد الشاب .

**"ما بيمشي الحال". قالها أبو شفيق، وشرع يتوضأ. ثم أضاف:" الدكان قريب روح اشتري قنينة، أو تيمم

متل ما عمل عبدو، وذنبكو ع جنبكو، كل واحد صار بدو يعمل دين ع كيفو".

--" طيب إذا رحت ورجعت ولقيت الخطبة خلصت شو بكون عملت؟".

++" يا خيي تخلص ما مشكلة، المهم تلحق الصلاة(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب). هيك علمونا".

****"طيب وإذا كانت الصلاة خلصت؟".**

++"حِلّ عني يا".

استدار الشاب وضرب كفّيه على الحائط مُقلدا عبدو، وهو يتمتم:"ما دام التيمم بالتراب أو بغبار الحائط يُغني عن فقْد الماء، فلماذا الوضوء من أساسه؟".

++"عمو، الوضوء مفروض بالقرآن، مش ع كيفك تلغيه، هيك عم تكفر". رد أبوشفيق غاضبا.

عند أعلى الدرج استوقفهما رجل مُلتحٍ، محفوف الشارب، نظر إلى مرفقي أبوشفيق، وعقبيه، فوجد أن الماء لم يشملهما، فعلّق:" أخي الكريم، هداك الله، ويلٌ للأعقاب من النار، وضوؤك ناقص، إنزل وأعِد الوضوء".

تجمّد الدم في عروق أبوشفيق، وسط قهقهة الشاب:

" يلّا روح اشتري قنينة ثانية هههههههه ".

****

عبدو يصلي الجمعة.

كان اللغط سيّد الموقف حين دخل المسجد. أحاديث جانبية بين المصلين فاقت الهمس، فسمع اسم شيرين أبو عاقلة.

نظر نظرة عجلى كي يجد مكانا في مؤخرة المسجد، فوجدها مكتظة، تعجّبَ كيف تكون المقدمة نادرة الرواد مع أنه سمع مرارا عن فضل الصفوف الأولى؟

تركزت الأنظار عليه، فشعَر ببعض الحرج. لاحظ الحاج أبو فادي حيرة عبدو فأشار إليه بصوت مسموع:"تعال".

وصل بصعوبة متكئا على أكتاف الجالسين كي يفسحوا له بموطئ قدم، فازدادت الهمهمات والتساؤلات عن جنسية هذا المُصلي ذي الملامح الأوروبية.

هذا المكان تحديدا خَصّصه الحاج لنفسه، فصار المصلون يتجنبون احتلاله خوفا من لسانه السليط. فَرشةٌ إسفنجية تحت النافذة مباشرة، حيث نسيمات الهواء المنعشة، وحيث يتمكن أبو فادي من مراقبة الرائح والغادي.

في الأيام العادية، يشبك كفيه خلف رأسه، مادا رجليه، لكن ازدحام يوم الجمعة يمنعه من هذا الترف، فيكتفي بعَقْد كفيه حول ركبتيه المثنيتين.

مِثله عبدو فَعَل، لا لضيق المكان فقط، بل لأن بنطلون الجينز يفرض عليه هذه الوضعية.

لم يكن المشهد غريبا، فالمتكئون على الأعمدة يجلسون جلسته، ولكل مُصلٍ حريته في اتخاذ الوضعية التي تناسبه، ما بين متربع وجالس جلسة التشهد.

تذكر عبدو في تلك اللحظة مقاعد الكنيسة وهدوء المؤمنين والمؤمنات. لكنه تعوّذ بالله مرتين.

مالَ إليه الحاج بصوت مسموع:" فرنساوي؟ ".

سمع القريبون منه السؤال، واتجهت إليه أنظار بعض العجائز المثرثرين على الكراسي، وصحا من النوم بعضهم الآخر، فأنصتوا خاشعين، تاركين الإمام وخطبته العصماء حول أعور الدجال .

****لا لستُ فرنسيا بل ألماني.**

++الماني ألماني أو عربي وعايش هناك؟

****الماني ألماني، عن إذنك حاج، أريد متابعة الخطبة، سنُكمل الحديث بعد الصلاة.**

++ خطبة شو يا زلمي، الله وكيلك صرنا سامعينها عشرين مرة، إذا مش أكثر.

فعلّق أحد الختايرة:" أيّ عشرين، قول خمسين وأنا بحلف يمين".

انفعل شاب يتابع الخطبة، فصاح بالخطيب:" الدنيا قايمة قاعدة، وأنت جاي تحكيلنا عن أعور الدجال؟ إحكي عن دجالين السياسة، عن الفساد عن الجوع والشحار والتعتير، إحكي عن شيرين واللي قتل شيرين. والله ما عدت أفوت عالجامع". وخرج غاضبا يُطرفش في الكلام.

تحمّل الخطيب فورة الشاب، فقال:

" أُقدّر مشاعره ومشاعركم، ونحن نتعاطف مع المناضلة شيرين رغم أنها مسيحية ولا يجوز الترحم و...".

قامت قيامة المصلين، وتلاطمت اعتراضاتهم فلم يلتقط عبدو منها شيئا. وراح يتأسف على خروج معظمهم غاضبين من المسجد.

كرر الخطيب دعوته للسكوت احتراما لبيت الله، ثم تهادى صوته:" كلنا مع القضية، ولكن لكل مقام مقال. في المسجد نُوعّي الناس على ما قال الله وقال الرسول. صلوا عالنبي يا جماعة". فضج المسجد بالصلاة عليه. تساءل عبدو في سرّه:" يُذكَر الله عدة مرات، فلا أسمع أحدهم يُكبّر أو يُهلل أو يُسبّح، وحين يُذكر الرسول تتعالى الصلوات عليه، معنى هذا أنهم يعظمون الرسول ويحبونه أكثر من الله".

انمغص الحاج من جرأة عبدو في الانسحاب من الحوار، بينما راح عبدو يتثاءب تماما كباقي المصلين، وهم

يسمعون أوصاف الدجال وأفاعيله حين يظهر قبل يوم القيامة.

كاد عبدو أن يتابع تهامسهم بشأنه، وتعليقاتهم المسموعة حول ما حدث، لولا أن هاج المصلون وماجوا حين اهتزّ المسجد بفعل اختراق طائرة حربية جدار الصوت، فراح الخطيب يهدئ الوضع، طالبا الانضباط وعدم الخوف من أمر اعتادوا عليه، وعلى أفظع منه، ثم استرسل في شرح ما يجب على المؤمنين الصابرين فعله يوم يتحكم الأعور الدجال برقاب العباد ورزقهم، ويفتنهم الفتنة الكبرى، وهو يجر وراءه نهرا من خُبز، ونهرا من ماء، مَن آمن به أطعمه، ومن كفر به حَرَمه.

هزّ عبدو رأسه قالبا شفته السفلى، ثم أخرج دفتر الملاحظات وكتب:(لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن يبدو أن غيره يعلم أيضا. إن صح الحديث، فلماذا لا يكون الدجال رمزا لقوة عظمى، تَرى بعين واحدة، أميركا مثلا.

وما دام الدجال يُنزل المطر، ويحيي الميت، فالأولى أن يعالج عينه العوراء، ويمحو كلمة كافر عن جبينه.

لو شاء الطيار أن يقصف بيت الله لفعل، كما حدث لمساجد كثيرة، ولم يمنع الله ذلك التدمير.

كنت أتوقع أن ينفعل الشيخ فيحث الناس على مواجهة الحاضر لا أن يُحذرهم من الدجال، الذي ربما لن يعاصروه، أو على الأقل يعلمهم كيف يضعون أحذيتهم على الرفوف، وكيف يجلسون في بيت الله،

وكيف ينصتون؟ أن يشجب الظالم قاتل شيرين المظلومة، بدل أن يطمس الجريمة، بالتطرق لجواز الترحم عليها من عدمه، فرحمةُ الله وسعت كل شيء. أن يحدثنا عن سماحة الإسلام، وقبول المخالفين له، وعن المحبة واستمالة غير المسلم بالحكمة والموعظة الحسنة، عن الذين قَتلوا الانبياء وسمّموا النبي ....).

في الخطبة الثانية دعا الخطيب على العدو دعاء صارخا مُزلزلا، فكررت الطائرة خرق جدار الصوت، وعمّت الفوضى بين مُطالب بالإسراع في إنهاء الصلاة خوفا من القصف، وبين معترض على تمطيط الموضوع لأكثر من خمس وأربعين دقيقة.

صلى الإمام بالناس ركعتين خفيفتين، وخرجوا غاضبين دون أن يسلموا على بعضهم، ويتبادلوا أدعية القبول كما جرت العادة.

دون جدوى بحث عبدو عن حذائه، فضحك صديقه:" طار الفاخر طار، كنت جيت بشحّاطة متلي، لازم تتمنظر يعني؟ إلبس شحاطة البلاستك تبع الحرامي أحسن ما تمشي حافي، وما تستحي، طَلّع الدفتر واكتب رقم الصدمة، صاروا 4 هههههههههههه.

زَوَره عبدو بقرف واضح:" لو جلستُ بين الأحذية لكان أفضل".

****

كيف تفحِم شيخا؟

بعد صلاة الجمعة وجد عبدو مائدة عامرة، كانت حواس أبوشفيق تتلمظ، يُنَقرِش من كل طبق يضعه، ماضغا اللقمةَ بصوت مسموع أزعج عبدو، لكنه أسرَّها في نفسه كضيف مهذب. تناول بضع لقيمات يُقِمن صلبه، بينما سَمَط صديقه معظم الباقي، وسط تذكير عبدو له بضرورة احترام الثلث المخصص للنَفَس.

"حُط بالخُرج يا زلمي، ما بقوم حتى تشبع عيني".

لم يفهم عبدو هذه الكناية إلا من سياق الحديث. وراح يُوضّب ما تبقّى تمهيدا لحفظه في الثلاجة، لكن أبو شفيق مَنَعَه ضاحكا:" خاف ربك يا زلمي، بدك تطعمينا أكل بايت؟". ثم حشرها في كيس نفايات.

سمع عبدو أذان العصر، فتوجّه نحو غرفة صديقه، وجده منطرحا على السرير، يكاد يغفو:" ألن ترافقني للصلاة؟". فرفع حاجبيه، يعني: لا .

قُرب الحاوية استوقَفَه منظر عجوز ينتزع كيسا من فم قطة، فدمعت عينه، ثم دس له في جيبه من المال ما تيسّر، مشيرا إليه نحو المطعم.

أمام المسجد لفتت انتباهه سيارة فارهة مركونة تحت سقيفة كُتب عليها:(مُخصّص لإمام المسجد).

أقام المؤذن الصلاة، فوقف عبدو بين رجال لم يتعدوا عَشَرة. استدار الإمام نحوهم:(ساووا صفوفكم وسدوا

الخَلل، ولا تدعوا فُرجات للشيطان). ابتسم عبدو شاردا:" عن أية صفوف يتحدث؟ الشيطان من نار، فكيف يصطف بين المصلين؟".

يبدو أن عبدو تقدّم كثيرا عن الصف، لأن الذي عن يمينه شَدّه من قميصه، فتراجع أكثر من اللازم، فشده الذي عن يساره إلى الأمام قائلا بصوت خافت(إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج). فابتسم عبدو وقد تذكر قصة الحاج العصبي النزق يوم حدث له الموقف ذاته، فصرخ بِمَن شَدّه :"هاتوا الزيبق لأخو هالفاعلة التاركة منشان يزبط الصف".

بعد الصلاة شرع الإمام في درس العصر، فانسحب المصلون واحدا تلو الآخر، ولم يبق إلا بعض المجاملين وعامل أجنبي منتوف، ليس لديه ما يفعله يوم العطلة.

حفّز عبدو عقله تلهُّفا لموضوع شَغَل باله كثيرا، يدور حول(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجّسانه). واسترسل الشيخ موضحا أن الفطرة تعني الإسلام الصافي القائم على معرفة الله وتوحيده. فرفع عبدو إصبعه طالبا السؤال، فقال الشيخ:"على الرحب والسعة، خاصة وأنه يُسعدنا ويشرفنا أنك أسلمت وترغب في التوسع في معرفة الدين".

****" لماذا لم يُكمل النبي عليه السلام الحديث، ويبين لنا، ما يترتب لاحقا على هذه المساواة في الفطرة؟**

ما دامت المسؤولية تقع على الأبوين، وعلى التربية المنزلية والتقليد الطبيعي لهما، واتباع العادات والتقاليد، فلا يجوز أن يُحاسَب أخي كارل مثلا لأنه بقي مسيحيا وُلد في دولة مسيحية، كما لا يجوز محاسبة البوذي لأنه ولد في الصين ورباه أبواه، وهكذا اليهودي والهندوسي الخ..".

--"هداك الله يا عبدو، واجب على المرء أن يبحث عن الدين الحق حين يبلغ ويصبح مُكلفا، وصدّقني سيجد أن الحق هو الإسلام، بعد أن يأخذ الله بيده، لأنه طلب الهداية".

++"مولانا لِنكن واقعيين، ربما أنت بحثت بحكم دراستك الدينية، وأنا متأكد أنك انطلقت في البحث مُسلّحا بقناعة مسبقة أن مذهبك هو الصواب، فصرت تقيس عليه الأديان وترفضها حتى لم يبق أمامك إلا مذهبك الحق، ولكن كم عدد المتدينين الباحثين عن الدين الحق، والرافضين لتقليد الآباء والجدود في العالم؟

ستقول لي لا أملك إحصائية حول هذا الموضوع.

حسنا، في الجمعة القادمة إطرح السؤال على المصلين الخمسمئة أمامك، وستتأكد بأنه لن يرفع يده أحد".

--"حسنا عبدو، الأمر لا يستدعي البحث في مئات الأديان والمذاهب، ها أنت قد هداك الله للإسلام وأجزم أنك لم تبحث وتقارن".

++" بالعكس، أنا بحثت بعد أن أسلمت متأثرا بحديث أبو شفيق عن روحانيات الإسلام التي نفتقدها في بلاد الغرب المادي الجشع. ولكنني لم أجد هذه الروحانيات إلا في الكتب. النظرية في واد والتطبيق في واد آخر مخالف للنظريات السامية. وقبل أن تكرر لي أن الإسلام شيء، والمسلمين شيء آخر، أقول لك إن كل المذاهب والحركات والأحزاب تستشهد في مرتكزاتها النظرية وسلوكها العملي على القرآن والسنة الصحيحة.

أنت مثلا، موقن تمام اليقين أنك ضمنت الجنة، ولكن صدمَتك ستكون كبيرة حين يصدك رضوان ويصرفك عن بابها، لأن حساب العالِم ضِعف حساب غير العالم، ولأنني سمعتك تثير الحقد والكراهية ضد مخالفيك في العقيدة، وتنفرهم من الإسلام، ولأنك طلبت منا التصدق لصندوق المسجد، في نهاية خطبة الجمعة، وراقبتك خارجا من المسجد ولم تتصدق، ولأنك شبعان جدا. وأشار عبدو إلى كرش الشيخ. بينما رأيتُ عجوزا يبحث في القمامة عن طعام.

قاطعه الشيخ رافعا صوته ويده:" ومن أنت حتى توزع بطاقات دخول الجنة. وتطرد من تشاء؟".

ابتسم عبدو:"لست أنا مَن فَعل، بل حضرتك حين جزَمت بعدم جواز الترحُّم على شيرين، لأنها مسيحية من أهل النار. هل شققت عن قلبها؟".

بُهت الشيخ وتخَرسَن فاغرا فمه، وقبل أن يُجيب خرج عبدو وسجّل على الدفتر : " اليوم صُدم الشيخ الصدمةَ الأولى".

****

عبدو في المقبرة.

بعد أن خرج عبدو من صلاة العصر، وجد جنازة في الطريق، سار مسرعا وراء النعش، وسط ثرثرات بعض المشيعين، كان بعضهم يدخن بعمق، وأحدهم ينُقّ بسبب غلاء البنزين وصعوبة الحصول عليه. فقال رفيقه"بعرف واحد بالمحطة بتعطيه قرشين وبعبي لك قد ما بدك".

أكد آخر يسير قريبا من عبدو:" ما بتجوز عليه إلا الرحمة، ما كان يترك حدا من لسانو".

وثالث يهرول مع المهرولين فقال لعبدو:"رحمة الله عليه شوف الجنازة كيف طايرة، مستعجل لدخول الجنة".

++"سرعة المشيعين سببها تَبَدُّل حاملي النعش باستمرار، وابتعادهم بسرعة تاركين مكانهم لغيرهم من طالبي الأجر وهكذا.. أما الجنة فندخلها بعد الحساب يوم القيامة، أليس كذلك؟".

****" أي بلا فذلكتك، هناك حديث شريف حول هذا الموضوع".**

++"ما هو الحديث؟".

****"شو بعرفني، هيك سمعت الشيخ قال".**

الرابع جَزَم بأن المطر الذي بدأ ينهمر الآن دليل على حسن خاتمة المرحوم".

رد عليه رفيقه :"بس تغرّقنا وهلق كلنا راح نمرض".

"ما مشكلة الأجر على قدر المشقة". رد رفيقه.

تدَخّل عبدو:"أخي، سمعتُ النشرة الجوية أمس، وتوقعَتْ هطول المطر، وكان ممكنا نقل الجثمان بسيارة تتبعها سيارات المشيعين".

****"بعدك عم تتفلسف؟ هناك حديث إنو حمل التابوت فيه أجر أكبر؟".**

++"ما هو الحديث؟".

**** "يا خيي ما حافظو، حِلّ عني بقا".**

كان عبدو يسمع بين الفينة والأخرى أحدهم يصرخ:"وحّدوه". فيرد الجميع:"لا إله إلا هو". ثم يعودون إلى الأحاديث الجانبية.

وصلت الجنازة المقبرة فاصطف المشيعون للصلاة على المرحوم، وهم يدورون بأعينهم باحثين عن الشيخ، فلم يجدوا شيخا، فتقدم عبدو وأمّ الحضور.

إلى القبر المفتوح وصل الجثمان، فصاح أحدهم:"ما بجوز يندفن فوق مرتو، من شهر ماتت، يا حرام فقع قهر عليها".

يجوز، لا يجوز، يجوز، لا يجوز، وساد اللغط، فقال عبدو:"يجوز للضرورة فقط".

****"ومين قالك بجوز؟". سأله الحاج المشاكس.**

++"هيك سمعت الشيخ قال".

أتمّ الشبان ردم القبر، فتوجهت الأنظار لاشعوريا نحو عبدو، فتقدم، ثم وقف فوق رأس الميت وراح يوجه كلامه للحضور، يحثّهم على الاتعاظ وأخذ العبرة والعمل الصالح، ولم يوجه أية نصيحة للميت، ولم يلقّنه أجوبة الأسئلة التي سيسأله الملكان عنها في القبر. كما أن عدم جلوسه مع المشيعين أثار زوبعة من الاعتراضات، تبعها اعتراضات أشد حين لم يكمش كمشة من التراب فيحثوها فوق القبر، على عادة الشيوخ المتمّمين للسنة.

تقاطَر الحُجاج عليه من الجهات الأربع:" يا خيي مش هيك بلقنوا الميت، من وين جايب لنا دين جديد؟".

++" لا عذاب في القبر".

ثارت الجموع في وجهه، ما بين مُكفر ومُفسّق ومُجهّل، فأشار بكلتا يديه مهدئا لهم :

++"هناك حديث صحيح حول الموضوع، بس مش صحيح، وسأشرح لكم بالتفصيل في قاعة العزاء".

****

عبدو و العزاء اليعربي.

بعد انتهاء مراسم الدفن، أحاط المشيعون بعبدو إحاطة السوار بالمعصم، نحو قاعة العزاء، لا احتفاء به، بل لسماع وجهة نظره حول عذاب القبر.

أُعجِب كثيرا بهذه المواساة الجماعية، واستلذّ أكثر بالقهوة العربية المتقنة، وحبات التمر، وإن كانت دون الوسط في الجودة تماشيا مع الوضع المادي لعائلة المتوفى.

مع كل قادم كانت الفاتحة تُقرأ، وعند خروجه أيضا. كاد عبدو يعترض كونها بدعة، ربما لن تفيد المتوفى الذي انقطع عمله، فمال إلى حاجٍ، عنده عِلمٌ مِن الشيوخ:" أليست هذه بدعة؟".

****"بدعة حسنة يا أخي، إن لم تنفع الميت فقد تنفع الأحياء، رغم أنهم يقرأونها بشفاههم دون أن تلامس القلوب، هي عادة مقبولة وكفى".**

++"بدعة حسنة نعم، ولكن الاستمرار على فعلها يحوّلها إلى عبادة، ألم تشهد ما حلّ بي في المقبرة لأنني لقّنتُ المشيعين عوضا عن الميت"؟!

قطع الحديثَ دخول لفيفٍ من المشايخ، فاستغرب عبدو تعازيهم المطوّلة التي لا تخلو من وعظ، رغم تبرُّم الحاضرين الذين اضطروا للوقوف طويلا، تبجيلا

لرجال الدين، وكاد عبدو يجلس من التعب لولا أن الحاج المشاكس منَعَه.

هدأت القاعة للحظات، قَطَعها أحد الشيوخ بخطبة عصماء مكرورة الأفكار، ثم أعطى المجال لشيخ ثانٍ، فطَلَع خطبة لا تقل وقتا عن الأولى، مع إضافات مكرورة أيضا، وهكذا استمر الوعظ الممطوط، رغم وقوف العديد من المعزين في الخارج انتظارا لانتهاء الخُطب.

همّ عبدو بالمغادرة فشدّه الحاج المجاور له:" لوين يا زلمي، أصبر، جاي الغدا".

++"أي غداء هذا الذي قبل المغرب بقليل، ثم إنه لِأهل الميت، هل أنت منهم؟".

****"يعني هاي الجوقة كلها منهم؟ أقعد اقعد".**

بكل تهذيب وقف صهر المرحوم عازما:" تفضلوا عالميسور عن روح المرحوم".

انتظر الحضور تقدُّم رجال الدين، فراحوا يتعازمون، مع مجاملاتٍ شمَّ منها عبدو رائحة التصنّع.

مائدة ممتدة، عامرة بالمناسف، وعلب الصفيحة البعلبكية، والسَلطة واللبن.

جلس عبدو وسط الشعب الكادح، مستغربا تخصيص رجال الدين بموقع استراتيجي مُميّز .

لم يكن عبدو من آكلات اللحوم، ولكن الحاج المشاكس راح حسب العوايد يُكرمه، ويحاول أن يفسّخ له اللحم من هنا والدجاج من هناك، ويُزقّمه حبات الصفيحة، وهو يرفض مُعتذرا:" تغديت قبل العصر بقليل".

++ كُلْ يا زلمي، أكلة الشبعان أربعين لقمة".

جامَل عبدو جاره ببضع لقيمات، ثم راح يعُبُّ مشهد الآكلين الذين لم يدعُهم أحد.

ظن عبدو أن الحزن سيسدّ نفس الحاضرين، ولكن خاب ظنه. فَقعقعةُ الملاعق كانت تتعالى مع أحاديث جانبية عامة، لا تناسب هذا الموقف التراجيدي.

استعدّ عبدو للمغادرة، وقسماته تنزف اشمئزازا، فتعالت الأصوات:" لوين هربان شيخ عبدو؟ ما بدك تحكي لنا عن عذاب القبر؟

++"لا تقلقوا لن أخلف الوعد، سأرجع بعد انتهاء الوليمة".

قهقه الحاج المشاكس:" بحلف ميت يمين إنو رايح عالحمّام، مِشيت معدتو، مشحّر مش متعود ع طبايخ العرب".

****

عبدو يعود إلى قاعة العزاء

عبدو لا يعلم الغيب، ولم يدرك حجم الهرج الذي ساد القاعة بعد خروجه، بسبب جملته الواثقة في المقبرة، والمعاكِسة لمعتقد الجمهور المحتشد:(لا عذاب في القبر).

بعد أن تخفّف في الحمّام، تمطّى فوق سريره للحظة، وقبل أن يُطبق جفنيه، فاجأه أبوشفيق لائما:" يا زلمي خرّبت الدنيا بتصريحك المتعجّل، القاعة متل خلية النحل، وصراخ الشيوخ ما بينطاق، قوم فِزّ، كلهن ناطرينك".

أيقن أن الفأس وقعت في الرأس، ولكن طبْعَه الألماني غلب، فراح يمشي نحو القاعة مشية الواثق، مجهزا حُججه الدامغة.

طرح السلام، فصار قِبلة الحاضرين.

لم ينسَ البروتوكول، فشرع يسلم على أهل الميت وعلى الشيوخ الذين اعتبروا أنفسهم أهل العزاء، فخطر بباله" لماذا تطغى الكروش واللغاليغ على معظم رجال الدين؟".

ثم قرأ الفاتحة دون أن يفتح كفيه و يمسح وجهه وصدره بهما، كما يفعل الحضور، فاستغربوا شذوذه عن المألوف، ثم فتح فمه كي يشرح الموضوع، فأشار إليه شيخٌ مُهذّبٌ، تبدو آثار نِعم الله عليه، بباطن

كفّه:" قبل أن تتفضل بالشرح، هل لنا أن نعرف ما هي مؤهلاتك العلمية، ومن أين استقيت - وقَلقَل القاف - علم الدين الضروري، لأن للعلم رجاله؟".

بَسمَل عبدو وحَمدَل وسط هدوء أشبه بالموت، ثم أضاف بلسان عربي مبين:"درستُ المحاماة وعملت بها إلى أن تقاعدت، وهداني الله للإسلام فدرست وبحثت فيما أسميتَه حضرتك علم الدين الضروري، فخرجت بنتيجة دامغة، أُشاهِد مصداقيتها في واقع المسلمين، أنهم ليسوا بحاجة أصلا إلى هذا العدد الهائل من رجال الدين، ولا إلى علوم الدين الضرورية التي شدّدت عليها حضرتك، من تفسير وحديث وعلم الكلام وسيرة نبويةوعلوم القرآن وعلم التجويد إن جاز أن نسميها علوما، فهي مجرد شروحات وتوضيحات للنصوص المقدسة، ولا تخضع لمعايير العلم من تجربة وفحص واختبار ومنطق عقلي، لأنها تتعلق بالغيب الذي نؤمن به تسليما، وتسليما فقط. العلم الوحيد الذي تُرفَع له القبعة والذي سبق عصره هو الفقه و أصوله و...".

عصّب أحد الحجاج المشاكسين:" يا أخي خلّصنا بلا هالمحاضرة، وفوت بموضوع عذاب القبر".

++"يا حاج أنا أرد على سؤال حضرة الشيخ".

****"خلّيه يكمل، خليه يكمل". قالها الشيخ بثقة. فهدأ الحاج.**

وراح عبدو يكمل:"سأسأل الحاضرين هنا كمثال مصغر عن المجتمعات كلها:" ماذا استفدتم من العلوم التي ذكرتُها؟".

تنطّح الحاج المشاكس واسمه عدنان للإجابة:" مِنّي وعليي، الله وكيلكم ووكيل السما والأرض، بحضر الخطبة و الدرس من هون وبيطلع من هون - وأشار إلى أذنيه - الحمد لله أنا مؤمن بالله ووحدانيتو وصفاتو الكاملة، صايم مصلي أنا وعيلتي، ونعمل الصالحات، ودايرين بالنا على شغلنا ليل نهار ويا ريت نلحق اللقمة، بكفّو هودي لدخول الجنة مولانا؟ ووجه وجهه للشيخ.

****" نعم نعم بكفّو". قرر الشيخ.**

فانطلقت تأكيدات الحاضرين:" كلنا هيك يا حاج عدنان كلنا هيك".

عصّب الحاج عدنان مرة أخرى:" يا زلمي نشّفت ريقنا، خلّصنا بقى وإحكيلنا عن عذاب القبر".

++"أنا أيضا نشف ريقي، سأشرح طبعا ولن أُخلف الوعد، ولكن في المسجد بعد صلاة العشاء، ألا تسمع الأذان؟".

زَوَرَه الحج عدنان بامتعاض واضح، هامسا بصوتٍ سَمعَه جاره:".. أخت الساعة اللي جيت فيها ع هالبلد !!".

****

عبدو والعلوم الضرورية.

في الطريق إلى المسجد اعترض عبدو على صوت المؤذن، وجَدَه مُنفرا ناشزا:" لماذا لا يستخدم التقنيات الحديثة، فهناك أصوات خاشعة جميلة جدا".

أصغر المشايخ سنًا أجاب بثقة:" ما دام الصوت الحي متوفرا، فلماذا نلجأ إلى(السي دي) وسواه من وسائط؟ ثم إن الأذان المسجل لا يُجزئ عن الأذان الشخصي، فلا بد من أن يؤذن أحدهم داخل المسجد، هكذا أجمع الفقهاء في السعودية".

هزّ عبدو رأسه، ولكن بدا على محياه أنه لم يقتنع.

تابط الشيخ الدكتور الحافظ المقرئ الجامع للقراءات ذراعَ عبدو تحبُّبا وتوددا، وقال:" حبيبنا عبدو، العلوم التي ذكرتَها في القاعة تخصصية وليست للعامة، إذ يجب إلجام العوام عن علم الكلام، وقِس على ذلك".

++"يا مولانا وماذا استفاد ملايين رجال الدين في العالم من معظم هذه العلوم، وماذا استفاد العامة منها؟ التفاسير موجودة على غوغل وكذلك الأحاديث النبوية بكافة درجات صحتها، والسيرة وسواها. العلوم الضرورية هي العلوم الطبيعية فيزياء وكيمياء وطب وهندسة ورياضيات وعلوم إنسانية، وهذه هي التي تبني الحياة وتحقق الخلافة في الأرض".

**** لهلهله، سامحك الله أخي عبدو، وهل جميع من يبحث قادر على فرز الغث من السمين؟ لا بد من رجال دين يفحصون ويفرزون ويحصحصون الحق".**

++"حسنا، ولكنني أكرر، عامة المسلمين يؤمنون إيمان العجائز ويؤدون الشعائر وصالح الأعمال، وأنت قلت للحاج أنها تكفي لدخول الجنة. على كل حال دعنا ننسى هذا الموضوع، أنتم تسمون أنفسكم رجال الدين، فَلِم لا يوجد نساء الدين؟ وهل رجال العامّة نسميهم رجال الدنيا؟".

ضحك الحاج المشاكس:" أيوا هيك، عبدو زَرَكك وحشرك بخانة اليَكّ مولانا".

****" إتقِ الله يا حاج، هي تسمية شائعة بين الناس ولم ينص عليها الدين".**

++"ربما استوردها المسلمون من الغرب، عندنا تسميات عدة لهم أشهرها رجال الإكليروس".

تصدى للرد شيخٌ قرأ مقالة مقتضبة في غوغل:"لا، لا يوجد في الإسلام رتب كهنوتية، كلنا نُسمَى رجال دين أو شيوخ، ونلبس اللباس الشرعي ذاته".

كالعادة، تعازَمَ الشيوخ أمام باب المسجد للدخول أولا، فقال عبدو بصوت جهوري:"تيامنوا". فتقدم الشيخ الأصغر، وتبعه الباقون وسط انمغاص الشيخ الأكبر سنا، فقد كان الأوجب تقديمه وتوقير شيبته التي تقطر علما وتقوى، ولكنه لم يُبدِ انمغاصه.

أقيمت الصلاة، فتقدم الشيخ الأكبر دون تعازُم، رغم أن صوته قد شاخ، ولكنه ما زال قادرا على إتقان أحكام التلاوة. ولأنه جامع للقراءات فقد ارتأى تغيير ما اعتاد المصلون عليه من قراءة حفص عن عاصم، وراح يترنم بقراءة ورش عن نافع، فقرأ:" مَلِك يوم الدين".

ردّه الحج المشاكس وجَمٌ غفير من المأمومين:" مالِك يوم الدين".

فكرر الإمام:" مَلِك يوم الدين".

رفع الحاج عقيرته بصوت واثق مشوب بالعصبية:" مالِك"، فأصر الإمام:" ملِك".

همهم الحج ودمدم حنَقا، ثم سكت بعد أن استوعب أنّ في الأمر إنّ .

بعد تسليم الإمام زعق الحاج:" يا مولانا شو هيدا اللي قريتو، قرآن جديد؟".

تبسّم الإمام الحافظ المقرئ الشيخ الدكتور وراح يشرح معنى القراءات العشر بإيجاز يناسب العوام، فتلفتوا إلى بعضهم، فيما كان عبدو يسجل في الذاكرة ما حدث.
بعد الوِتر انتصب الشيوخ واقفين، فصرخ الحج:" لوين لوين يا جماعة؟ مش عأساس عبدو يحكيلنا عن عذاب القبر؟".

طبطب الإمام على كتف الحج:" لكل مقام مقال، موضوع كهذا لا يُناقش في المسجد، سنشرب الشاي عند أخينا أبي شفيق، وهناك نفتح الموضوع.

ابتسم أبوشفيق ابتسامة دبلوماسية، وراح يدعو الجميع إلى داره.

قبِل معظم المصلين الدعوة، فانمغص الشيخ الأكبر مرة أخرى.

وفيما كانوا يخرجون مال الحاج المشاكس إلى عبدو:" ليك عبدو، قَسَما عظما إذا ما بتفتح الموضوع بالبيت لأفتح راسك بهاي العكازة".

قهقه عبدو:"خلص يا حاج وَلَو !! راح بوَفّي بالوعد".

فقهقه الحج:" أي هيك من الأول حاج تحكيلنا مكسيكي".

****

الحُجة الدامغة .

في صالون أبو شفيق جلس الحضور، فتوجه الشيخ الأكبر بالسؤال نحو عبدو:" استثمارا للوقت ونظرا لمشاغل السادة العلماء، نأمل شرح وجهة نظرك حول عذاب القبر بإيجاز غير مُخِلّ".

++"ما هو عملك مولانا؟". سأله عبدو.

. "قاضٍ في المحكمة الشرعية".أكد الشيخ الأكبر.

++"جيد، وهل تُعاقِب المتّهم مباشرة قبل أن تحاكمه في جلسات مطولة بحضور محامي الدفاع؟".

."يستحيل طبعا، فهذا منتهى الظلم".

++"فكيف ترضى لله عز وجل أن يكون ظالما، فيُعاقِب قبل أن يُحاسِب، ولماذا يقف العباد للحساب والميزان بعد النشر والحشر(يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها).

."على مهلك عبدو عمهلك، صحيفة أعمالك تكون جاهزة لحظة الوفاة(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وبناء عليها يبدأ العقاب والثواب في القبر".

++" الآية تتحدث عن موقف الحساب، حيث سيتم بعدها الحساب والميزان والمجادلة، ويظل السؤال

قائما، ما فائدة الحساب والميزان يوم القيامة، طالما صدر الحكم لحظة الوفاة وبدأ العقاب؟".

توقفت اللقمة في أفواه الحاضرين، بينما راح الشيخ الأكبر يقرر(لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون). وأخذ يعدد الآيات التي تُلمّح إلى عذاب القبر تلميحا يستدعي التحليل والتأويل.

فتدخل الحج عدنان بنَزَق:" والله يا مولانا أنا أستغرب، كيف يكون هناك عذاب في القبر، ولا يذكره الله ذكرا صريحا، كما ذكر عذاب جهنم في عشرات الآيات؟".

أثنى الحاضرون على تعليق الحاج بتصفيق خفيف. فردّ الشيخ الأكبر:" ليست كل الاحكام مذكورة ذكرا صريحا، وهذا واجب العلماء في استنباطها وكمثال فقط فشروط الصلاة وهيأتها ومقادير الزكاة غير مصرح بها وقِس على ذلك".

زعق الحج عدنان:" هذا قياس مع الفارق، أنت تتحدث عن احكام فقهية، ونحن نتحدث عن عقيدة تتمثل بالإيمان بوجود عذاب القبر".

." أكرر (لا يُسأل عما يفعل ...)ثم لننتقل إلى الحديث الشريف المعروف والموجود في صحيحي البخاري ومسلم(خَرَجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَعْضِ حِيطَانِ المَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ في قُبُورِهِمَا، فَقالَ: يُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، وإنَّه لَكَبِيرٌ، كانَ أحَدُهُما لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وكانَ الآخَرُ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ ثُمَّ دَعَا بجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا بكِسْرَتَيْنِ أوْ

ثِنْتَيْنِ، فَجَعَلَ كِسْرَةً في قَبْرِ هذا، وكِسْرَةً في قَبْرِ هذا، فَقالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عنْهما ما لَمْ يَيْبَسَا.)

وهذا الحديث يؤكد باللفظ الصريح (إنهما يُعذبان).

++"مولانا، هذا هو الحديث الوحيد الذي تحتجون به، ومهما كانت درجة صحته، فلا يمكن أن يصح، لأنه يسيء إلى النبي عليه السلام، فكيف ينهانا عن الغيبة، وهو يغتاب الرجلَين الميتَين. وكيف يذكر سيئاتهما وقد قال:(اذكروا محاسن موتاكم)؟ أعرفُ أن هذا الحديث ضعيف، ولكنه مشهور ومتداول حتى بين عوام الناس، وحتى لو لم يقله النبي عليه السلام فمعناه الأخلاقي رائع ويجب علينا الالتزام بذكر محاسن الموتى.

ثم هناك إشكالات عقلية تتعلق بتعذيب جسد تَحوَّل إلى تراب، وتعذيب ميت غرق وتناوشت جسده الأسماك، وشخص تعرض للتفجير فصار نتفا ممزقة تذروها الرياح.

."ومن قال لك أن العذاب جسماني فقط، فالروح تتعذب في البرزخ".

++"حتى لو فرضنا جدلا صحة تعذيب الروح، يظل السؤال الجوهري قائما: كيف يُعاقِب الله المسيء قبل محاسبته يوم الحساب والميزان الذي ذُكر صراحة في القرآن وفي عشرات الأحاديث؟".

تململ المشايخ والحضور في أحاديث جانبية هامسة.

فختم الشيخ الأكبر النقاش:" عذاب القبر مما أجمعت عليه الأمة، وعلماء السلف والخلف، والأدلة القرآنية التي عددتها تثبت ذلك، والدين لا يؤخذ بالرأي والعقل، بل بالنقل".

ابتسم المشايخ لحسن التخلص الذي نطق الشيخ الأكبر به، بينما راح الحج عدنان يحيّي عبدو على أدلته الدامغة، ثم وجه كلامه للحضور:" لم يكن هناك من داع لتنبيش بطون الآيات من أجل ترسيخ عقيدة إيمانية بهذا الحجم من العذاب الممتد لآلاف السنين، ولو كان عذاب القبر حقيقة ثابتة لذكره الله صراحة في كتابه، فقد ذكَر ما هو أبسط منه بكثير بكثير، حديث المجادِلة، حادثة الإفك، وعبوس الأعمى، وتكرار قصة بني إسرائيل في سبعين سورة الخ.. ثم إنني أسأل: لنفرض أنه لا يوجد عذاب قبر، ولا جهنم فهل هذا مبرر لنا كي نعمل السيئات والجرائم والظلم والفساد؟ التخويف بجهنم وبعذاب القبر أثبت عدم فعاليته وحده في ردع المجرمين عن الإجرام، ولذلك شرع الله الحدود والقصاص، ولك أن تشهد واقع المسلمين المؤمنين بهذين العذابين المؤجلين لما بعد الموت، حيث تنتشر عندهم الفوضى والفساد والظلم والأذى وكل المنكرات والفواحش التي نهانا الشرع عنها، أكثر مما هي موجودة في الدول غير الإسلامية.

أعيدوا تنقيح الكتب الدينية مولانا، وجددوا الخطاب الديني بما يناسب عصر العلم والتكنولوجيا وثورة الاتصالات والمعلومات، لأن الناس لم يعودوا يعتمدون

على كلامكم فقط، بل يبحثون ويقرأون عبر مواقع الانترنت، ويتابعون الفضائيات. البلبلة موجودة، والتشكك حاصل والارتداد عن الدين يتزايد".

****"نعم معك حق نحن بحاجة لتجديد الخطاب، وسنعمل على ذلك، ولكن لا يحق لمن هب ودب أن يدلي بدلوه في مسائل العقيدة تحديدا، وأكرر، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون".**

تأخر الحاج المشاكس منفردا بصديقه:" حُجة المغلوب دايما(لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) شقفة ألماني، لا شيخ ولا ما يحزنون، غلب جوقة مشايخ، بينقلوا المعلومات خلفا عن سلف، بس عبدو بيفكر وبيحلل".

--"شو ؟ تخمين برم لك راسك".

****"مش بس راسي، برمني كلني سوا".**

****

عبدو في المؤتمر.

كاد أبو شفيق يطير من الفرح، وهو يتلقى دعوة للمشاركة في مؤتمر (الإسلام و الانفتاح).

على ذمته أنه يأمل بالتغيير والإصلاح، وأنا على ذمتي أقول إن فرحته ناجمة عن كونه لن يتكلف قرشا واحدا، ظهر ذلك من خلال تأكيده:" تغيير جوّ، منتسلّى ومنتحلى". هنأه عبدو من الأعماق، وطلب منه تحضير ورقة بحثية فاعلة ومؤثرة بأفكارها الجديدة، وطمأنه بأنه سيساعده في التحضير. ابتسم أبوشفيق ابتسامة العرفان، لكن عبدو قال في سرّه:" أعرف أنني سأُحضّر البحث بكل تفاصيله، وأن صديقي سينقش اسمه على الغلاف فقط، وآمل أن يتقن قراءته أمام اللجنة، المهم أن تصل الأفكار وتطبّق".

ثم قفزت الفكرة إلى رأسه:" سأرافقك على نفقتي الخاصة، ولا مشكلة عندي، جواز سفري ألماني، سأحصل على تأشيرة سياحة خلال ساعة فقط، وقد أسبقك إلى هناك، تاركا إياك تتخبط في مستنقع الروتين.

لم يعترض عبدو على إجراءات السفر المعقّدة وعلى قتل الوقت في الطوابير أمام موظفة وزن الحقائب، وقدام خاتم الجوازات الآمر الناهي المفتش عن أصغر هفوة في وثائق السفر كي يفرح، فعبدو قد علِق في المصيدة من قبل.

الحق يقال أن الانفتاح ظهرت نتائجه مذ وطئت قدم عبدو أرض الدولة الداعية إلى المؤتمر، رجال أمن يبتسمون، وحقائب تتثاءب ريثما يختم أصحابها جوازات السفر، وسيارات مكيفة تنتظر خروجه من المطار.

شعر عبدو أنه في ألمانيا، وهذا ما أثنى عليه أبوشفيق، ولكنه حين غادر الفندق ذا النجوم الخمس، ذُهل لمنظر المتسولين والمتسولات على الأرصفة، وصار يصفر استغرابا لغلاء الأسعار الفاحش، وحزّ في نفسه كثيرا منع الفيسبوك واليوتيوب في بلد يدعو إلى الانفتاح.

الحق يقال إن دقة الترتيب في قاعة المؤتمر كانت من أعلى طراز، سقف كريستالي فتّان، إضاءة مبهرة، مشرفون مبتسمون، ومايكروفونات مثبته أمام كل مشارك، موصولة بقنوات الترجمة.

قام القرآن الكريم بواجبه المعتاد، فافتُتِحت الجلسة بآياته العطرة، تيمّنا وتبرّكا، تماما مثلما كان البث الإذاعي والمتلفز قبل عقود، رغم ما كانت تتضمنه البرامج آنذاك من موسيقى ولقطات إباحية، ولغو الحديث الذي نهى الشرع عنه.

تبع ذلك أنشودة نبوية وأخرى حزينة مؤثرة، دمعَت عيون بعض الضيوف لها، فاستغرب عبدو كثيرا هذا الموقف، وكاد يتأثر لولا أنه تذكر أن دمعته الأخيرة ذرفها قبل بدء الرحلة على ولده.

أعلن رئيس المؤتمر افتتاح الجلسة بخطبة عصماء، وجد عبدو أفكارها مكرورة.

ثم شدد على أن وقت الجلسة ستون دقيقة بواقع عشر دقائق لكل شخصية. فشرع الخطباء يتداولون الحديث الممطوط المكرر، الذي لم يخرج عن شرح معنى الصحوة والانفتاح، وأنواعها، وبنودها وآليات تطبيقها على أرض الواقع، وضرورتها الماسة، لإنقاذ الأمة. وكان عبدو يضحك، كلما اعتذر خطيب عن الإطالة، وتجاوز العشر دقائق المحددة له، محتجا بأن المقام يقتضيها حتى لا تأتي الأفكار مبتورة أو مجتزأة، وقهقه عبدو حتى بدت نواجذه حين استمرت الجلسة ثلاث ساعات، تخللها شخير بعض الحاضرين، وانشغال الغالبية العظمى من الجمهور المحتشد بهواتفهم النقالة، أو بأحاديث هامسة لا تخلو من مزاح.

في الجلسة الثانية توزع المشاركون على لجانٍ لمناقشة فروع الموضوع .

طلب أبوشفيق التحدث في لجنة حملت عنوان (تجديد الخطاب الديني).

سمح له الرئيس بخمس دقائق يلخص فيها بحثة البالغ خمسين صفحة. فاعترض، لكن الرئيس قَمَعَه بتهذيب مصطنع.

تحدث أبوشفيق بسرعة وإتقان عن تجربة مارتن لوثر، فتناوشته اللحى الجالسة بتعليقاتٍ تداخلَت حتى لم يفهم فحواها أحد. قَرع الرئيس على الطاولة طرقات

آمرة، أسكتت الحاضرين، ثم استلم البحث من أبوشفيق، تمهيدا لتلخيص محتواه وإدراج أفكاره النيّرة في مقررات المؤتمر.

مساء اليوم الثاني للمؤتمر كان موعد تلاوة البيان الختامي، حضرت حواس أبو شفيق وعبدو لالتقاط جُمل تتعلق بما جاء في بحثه الرصين، لكن ذلك لم يحدث.

أطرق أبوشفيق منزعجا، ففاجأه شاب يربت على كتفه:"هزرَتُكم أبوشفيك؟".

++ نعم، حزرتُنا أبو شفيك، خير شو في؟".

عفوا وجدنا هذا البحث تحت طاولة رئيس اللجنة بالأمس .

****

عبدو وأبرهة.

عاد الصديقان إلى بيروت، وكالعادة اعتذر أبو شفيق عن الصلاة في المسجد محتجا بتعب السفر، لكن عبدو كان من عشاق المساجد، التي ستشهد له يوم القيامة.

دخل المسجد على أطراف أصابعه، كي لا يحدث صوتا فيلفت الأنظار عن الدرس الشرعي.

كان الشيخ متربعا فوق كرسي فخم التنجيد، يتمايل يمنة ويسرة على وقع التهليل والتكبير إعجابا بتفسيره الوافي وتحليله الكافي.

جلس عبدو يستمع بخشوع، فنَكَزه جاره :"لم تُصلِّ ركعتي سنة دخول المسجد".

++"طلب العلم فريضة أليس كذلك؟ والفرض مُقدّم على السُنة، أليس كذلك؟ وأنت انشغلت بي، وشردت عن الدرس، مع أنك كنت تهلل وتقول:"الله يفتح عليك يا شيخ" وأنا بقطع إيدي إذا كنتَ فهمتَ مما قال شيئا".

نظر إليه الناكز نظرة قرف وتمتم، ففهم عبدو أنه يشقّع له تشقيعة متوسطة الإباحية احتراما لبيت الله.

كان الدرس حول قصة أصحاب الفيل كمعجزة إرهاصية بولادة النبي عليه السلام، ذاك أن أبرهة الأشرم المسيحي قائد الأحباش قدِم مع جيشه لهدم الكعبة، انتقاما من أعرابي تغوط في كنيسة القليس

باليمن، فانسحب أهل مكة بعيدا لعدم تكافؤ القوى مع جيش أبرهة، الذي صادر مئتين من إبل بني هاشم. وحين وصل قابَلَه شريف مكة عبد المطلب جد النبي، وطلب منه إرجاع الإبل، فتعجب أبرهةواستصغره لجبنه، وأنانيته، كما تقول السيرة النبوية (تطلب الإبل ولا تطلب الامتناع عن هدم الكعبة؟).

فقال عبد المطلب:" أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه".

ثم امتنع فيل أبرهة واسمه(محمود) عن هدم الكعبة، وأرسل الله طيرا أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول.

هلل الحاضرون وكبروا لهذه المعجزة الإلهية، لكن عبدو رفع يده طالبا الكلام:" مولانا، كشفَت بعثة(ركمانز) في القرن الماضي عن نقش أثري كتبه جيش أبرهه الحبشي في موقع(مريغان) الأثري بمنطقة تثليث جنوب المملكة العربية السعودية. هذه النقوش الأثرية تؤرخ لفترة حكم أبرهة و لم تذكر أنه قصد مكة بتاتا، بل أنه حارب قبيلة كندة الجنوبية التي وقفت مع أعدائه ضده.

****"هذه روايات كاذبة، واللهُ أصدقُ منها حديثا". قرر الشيخ. فأعاد الحضور التكبير بصوت أعلى من ذي قبل.**

++"حسنا مولانا، أنا موافق، ولكن أبرهة حين حاول هدم الكعبة فإنما كان يهدف لهدم الأصنام الشركية بما أنه يعتنق دين أهل الكتاب، المسيحية دين التوحيد،

والمنطق يقضي بأن يسمح الله له بذلك تمهيدا لظهور دين الإسلام، الهادم للأصنام".

زعق الشيخ بصوت يصمّ الآذان:" أتقارن النقوش والمنطق العقلي بكلام ربنا؟ من أين تأتي بهذه التحليلات المارقة التي تشكك المؤمنين، أيها الأفّاق الزنديق".

شبّ الشيخ عن الكرسي نحو عبدو وتبعه الحاضرون، ففر عبدو كغزال يلحق به أسد، دون حذاء. هو يركض والحضور يركضون، هو يركض وهم يركضون، حتى بلغ منهم الجهد مبلغه، ونجا عبدو بأعجوبة.

زَوَرَه أبو شفيق مؤنبا " يا خيي ما بدك تبطّل تحليل وتخبيص؟ خلّصنا من أفكارك الهدامة، واقعد عاقل، اليوم زمطت من القتلة، الله اعلم شو ناطرك وناطرني".

++ قهقه عبدو:" أكتر من القرد ما مسخ الله، خربانة خربانة، ويمكنك أن تضيف نقطة هههههه".

****

عبدو في قاعة اليونسكو .

لم يكن عبدو فضوليا، فلا داعي أن يسأل أبوشفيق عن الشعار الذي يحتل من صدره موضع القلب، بشكل دائم.

شعار يحمل ألوان علم فلسطين مع بعض الاختلاف البسيط.

اليوم نطق أبوشفيق بالسر:" ليك عبدو، عطول عم شوفك تبحلق بهيدا الشعار، أنا بعيش بلا أكسجين، بس مستحيل أعيش بلا حزب. بكرا العصر عازمك ع لقاء مع أحد القادة للتحدث عن ذكرى تأسيس الحزب".

وكيف لا يوافق عبدو، وقد أتعبَه المتدينون، ورجال الدين، فوجد اللقاء الفكري، كما وصفه صديقه، فرصةً للمقارنة بين دور الدين والأحزاب العلمانية في إحياء الأمة وإنهاضها من غفوتها.

طوال الليل كان يفكر في النظريات الجذابة التي قرأها وحول آليات التغيير، وكان يَعجب، لماذا لم تؤثر نظريات الأحزاب وجماهيرها العريضة في همز الأمة كي تستيقظ؟

أمام القاعة كان أبوشفيق يُسلّم على كل من هب ودب معانقا إياه، مع أنه كان واضحا أنهم جميعا يسلمون

عليه دون اكتراث، وكان يحاول لفت نظر عبدو الذي كان يُظهر الإعراض عنه، مع ابتسامة خفيفة.

كاد أبو شفيق يتفركش مرارا وهو يزاحم من أجل الحصول على عَلمَي الحزب والوطن، تعجب عبدو من هذه الازدواجية في الانتماء، فسأله:"ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإلى أي العلمين تنتمي؟ ضحك أبو شفيق:" قلب المتحزب يتسع لأكثر من علمين، حزبنا يخدم هذا الوطن، وما حوله من أقطار، بل والإنسانية جمعاء". فهز عبدو رأسه موافقا. ثم تذكر أبوشفيق فكرة مُفحمة لعبدو:" يا خيي حضرتك مستكثر عليي علمين، شوف غيرنا من أحزاب كيف بيحملو علم الوطن وعلم دول إقليمية، وغير إقليمية، وقّفَت علينا نحنا، العمى شو عينك ضيّقة".

لم يكن الضيف قد أتى بعد، فمن غير اللائق طبعا أن يحضر قبل قدوم المستمعين، العكس هو الصحيح، تماما كما هي عادة خطيب الجمعة، فهذا يخدش الوقار، حتى وإن كسر قاعدة الالتزام بالوقت المحدد.

نصف ساعة تأخير، لن تقدم ولن تؤخر في روزنامة الأزمنة المهدورة .

داخل القاعة كانت الهتافات هادرة تمجّد زعيم الحزب وتُردّد بانتظام رتيب(بالروح بالدم نفديك يا زعيم).

طرب عبدو لهذه الهتافات الطنانة، التي لم يعهدها في أوروبا، وأكد في سرّه أن هذا دليل واضح على مدى تعلق الهتّافين بزعيمهم المفدى العادل الرحيم الحر

المستقل الوطني حتى نخاع العظم، والمعطاء بشفافية.

جلوس عبدو في الصف الأخير لم يزعجه كثيرا، فهو يُمَكّنه من مراقبة المشهد بدقة وشمول، رغم أن زمجرة الهتافين تصله بشكل صاعق مزلزل .

كان أبوشفيق ينكزه بخاصرته كي يقف لفلان أو علان، ويأبى عبدو بعناد. فشعر بإحراج شديد ربما يقوده إلى المساءلة الحزبية، خاصة وأن أحد المشرفين على تنظيم الحفل كان يركز نظره على عبدو.

انقلبت القاعة رأسا على عقب، حين دخل القيادي، فازدادت الهتافات وتضخمت، ما اضطر عبدو لإغلاق أذنيه حرصا على الطبلتين الرهيفتين، فحدجه المشرف بنظرة تهديد.

وقف القيادي فوق المنصة يُحيّي الجماهير الشعبية ويبتسم، ثم أشار المرافقان بكلتا اليدين فخشعت الأصوات، ولم يُسمع حتى الهمس.

حيّى القيادي الحضور بعد أن بسمل باسم الشعب الكادح، وراح يعدد إنجازات الحزب ودوره الرائد في خدمة الأمة، وكان الجمهور يقاطعه بشعارات بليغة عميقة الأغوار، مُعدّة سلفا بإتقان الأدباء الموالين عن إيمان راسخ لا يتزعزع.

[ ] ركز القيادي على الانتصار على الرجعية والعمالة، وعلى الصمود الأسطوري في وجه المؤامرات الخارجية

والمخططات المشبوهة، ولم ينس شُكر الدول الصديقة ودول عدم الانحياز على دعمها المعنوي اللامحدود.

كان الحضور الكريم يصفق ويهتف كلما أتى الخطيب على ذكر الزعيم، ويكتفي بالتصفيق حين تُذكر إنجازاته، ما جعل عبدو يحصي الزمن، فوجد أن خمسين دقيقة من وقت الخطاب كانت للهتافات، وأن عمر الافكار النيرة كان عشر دقائق. كاد يبتسم لولا أن هاج الحضور وماجوا واختلط الحابل بالنابل عندما خرقت طائرة عدوة جدار الصوت فوق القاعة.

مضى الصوت وهدأت القاعة، فلم يجد الخطيب غير المرافقَين الاثنين مرتميين فوقه، درءا للأخطار المحتملة، ولم يجد غير المشرف على التنظيم يقف قبالة عبدو، الذي لم يتزحزح من مكانه، لاعتقاده التام بأن الموت تحت الأنقاض خير ألف مرة من الموت خنقا تحت الأقدام المتدافعة.

++"هويّتك لو سمحت". قال المشرف لعبدو .

أخرج عبدو جواز سفره الألماني، فتناوله المشرف باستغراب بالغ يعكس نظرية المؤامرة، والتقط صورة للمعلومات كتدبير أمني بسيط.

دخل أبوشفيق راكضا للاطمئنان عن صديقه، فوجد المشرف يسأل عبدو عن عنوان إقامته .

أبرز أبو شفيق بطاقته الحزبية، وراح يشرح له قصة عبدو من طقطق حتى السلام عليكم، فرحب المشرف بما سمع بحذر دبلوماسي لافت، وانصرف.

لم ينبس أبو شفيق بكلمة إلا بعد أن ابتلعه الزقاق الجانبي، ثم هزّ عبدو من ذراعه:" إنتَ مش بألمانيا لحتى تتعنطز وتتفنطز وتكبّر راس متل ما بدك، هون بتعمل متل ما بقلك مفهوم؟".

++ أي أي بعرف، أهل بيروت أدرى بزواريبها". ردّ عبدو.

ثم همس في سرّه :" ... اخت الساعة اللي جيت فيها لهون".

****

عبدو ومسجد مختلف .

من نافل القول الا يعود عبدو إلى المسجد الذي طُرد منه شرّ طردة، إذ لولا لطف الله به لكان الآن في المستشفى، ملفلفا بالجبس والشاش.

خرج من البيت خائفا يترقّب، وركض باتجاه المسجد المقابل.

صدقا، فقد وجد الأحذية مصفوفة فوق الرفوف بإتقان. صافحَت أنفَه رائحةُ البخور المألوفة لديه، على الرغم من أنه يعتبرها نفّاذة جدا، ولن يدخل المسلمون النار إن رشرشوا في المسجد عطر الياسمين الباريسي مثلا.

استقبله بعض الشبان بأدبٍ جمّ، وقد قرأوا في وسامة وجهه إشراقة الإيمان:" سمعنا عما حل بك في المسجد المجاور، مؤسف حقا ما حدث لك. هنا سيطيب لك المقام. نحن وسطِيّون، نمقت التعصب والتزمت والتشدد. بعد قليل يبدأ احتفالنا بذكرى مولد نبي الهدى عليه السلام".

انشرح صدر عبدو وتنفس الصعداء، كيف لا وهو من عشاق الغناء والموسيقى، ولا يعترف بالفتاوى التي تعتبر هذا الاحتفال بدعة.

صلى سُنة المسجد، فتهامس الحاضرون حول صلاته.

****"حضرتك ألماني ألماني، أو فقط مقيم بألمانيا؟**

++" ألماني ألماني، عبرتُ إلى الإسلام بفضل صديقي الملتزم أبو شفيق".

****"ما شاء الله، هنيئا لك هذا الخلاص الأبدي. وأين صديقك هذا، لماذا لم يحضر معك؟".**

++"قال لي إنكم مثلنا، ولكنكم لستم مثلنا!!".

****"سامحه الله يا أخي، دائما تُثار الإشاعات حول أهل الحق. ستلمس انضباطنا وصوابية اعتقادنا وسلوكنا بنفسك".**

++" آمل ذلك يا أخي فقد تعبت، وحياتك تعبت".

****"لا يجوز أن تحلف بحياتي".**

++"طيب، بشرفي لقد تعبت".

****"ولا بشرفك. من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت".**

أيقن عبدو أن عليه ضبط كلماته بدقة، حسب قواعد الشرع الحنيف.

بدأ الاحتفال بكلمة من عريف الحفل، لاحظ معها عبدو أنه يُجوّد الحروف ويخرجها من مخارجها الصحيحة، فأعجبه هذا الالتزام.

ثم استعدت فرقة الإنشاد ورَفعت الدفوف، فقال عبدو لمُجاوِره:" يعجبني صوت الدَّف كثيرا".

فصحح له:" دُفّ يا أخي وليس دَفّ".

برم عبدو بوزه قليلا، وتساءل:" يعني ستخرب الدنيا والدين إن قلت دَفّ؟".

**** "عفوا أخي، لا مانع من أن تصحح ألفاظك ومعلوماتك بحسب المأثور الصحيح".**

تابع عبدو الأنشودة بشغف كبير، وسأل مُجاوِره:" حبذا لو كان العود والقانون مستخدمان في العزف إذن لاستمعنا إلى أناشيد نادرة الجمال".

****"لا يا أخي هذه آلات محرمة شرعا، عند جميع المذاهب، ولم يُبح لنا إلا الدُّف".**

هزّ عبدو رأسه بامتعاض مكتوم.

بعد أنشودتين، جلس الشيخ جلسة مهذبة ليلقي موعظة قصيرة كما قال.

بكل جوارحه أنصت عبدو لدرسٍ حول أنواع الكفر الفعلي والقولي، وأمثلة مُسهبة حولها، لكنه فغر فاه عجبا حين قال الشيخ:" إن ابن تيمية كافر، ومن لا يُكفره فهو كافر".

فرفع يده طالبا الكلام .

" تفضل".قالها الشيخ مع بسمة عذوب .

++"قرأتُ أن هذا الحكم ينطبق على من كفّره الله عز وجل في كتابه، ولا يشمل المسلم الناطق بالشهادتين، أنت تُكفّر شيخ الإسلام يا مولانا، وتطلب منا أن نكفّره؟".

**"نعم صحيح، وسأذكر لك عدة أدلة تكفره من كتبه هو برقم الصفحة والسطر، فنحن لا نكفّر أحدا بلا دليل، وإلا وقعنا نحن في الكفر. ليس هذا وحسب، بل انت تكفر إن لم تكفّره".

ابتسم عبدو:" وما علاقتي به أنا، وهل سأُحاسَب لأنني لم أقرأ كتبه أو لأنني لم أكتف بتكفير حضرتك له؟".

**"نعم فكفره مسطور في كتبه، وهاك الأدلة".

مد عبدو كفه باتجاه الشيخ، وهو يهم بالمغادرة:" لا داعي لذكر الأدلة يا مولانا، أنا سأُحاسب على أعمالي وأقوالي، ولست مسؤولا عما قال فلان أو علان، على قاعدة لا تزر وازرة وزر أخرى".

خرج عبدو وسط الهمهمات والتعليقات، فلحق به الشاب المهذب:" انتظِر لحظة كي نشرح لك".

فنفض عبدو ذراع الشاب بنزق ظاهر:" يبدو أن صدماتي لن تنتهي".

****

سهرة عرب.

عاد عبدو مهموما مغموما من المسجد المقابل، تتناوشه الأسئلة، فاحتضنه صديقه:" بعرف إنك مقهور ومعصّب من الوضع، منشان هيك عازمك الليلة ع سهرة غير شكل، جلسة ثقافة وطرب، راح تنسى الصدمات كلها".

تفرّس عبدو الوجوه، فوجدها تفوح ثقافة وعلما.

قاموا يسلمون عليه بأدب جمّ وحب ملحوظ، كلٌ يعرّف عن نفسه بلغة أجنبية، وكان عبدو يرد بالعربية الفصحى، فشعر بالسعادة الغامرة، وقرر أن يبهدل صديقه لأنه حجب عنه هذا الكنز المعرفي، وجعله يتخبط ويكتئب بين المساجد المتنافرة والمآذن المتكافرة.

أشار أبوشفيق إلى صديقه طبيب الأسنان عازف العود، والمهندس عازف الكمان رافعا صوته:"مدن النرجس". فطرب الحضور للعزف المتقن لدرجة أن(عزيز)دمعت عيناه إذ تذكر (أربيل) وقام أبوشفيق يحضنه ويدعوه إلى رقصة كردية مذهلة الحركات، بعد أن همس لعبدو"هيدا صديقي، ملحد بس مسقّف كبير، أوعى تعلق بلسانو، كل كلمة بتحكيها بدو يفصفصها ويحددها ويمددها".

بعد الرقص، تناول عبدو الكمان وعزف تاسعة بيتهوفن فصفق الجمع له رغم التثاؤب المتكرر .

بدا الفرح على قسمات عبدو وقد حلحلت الموسيقى عُقد الحزن من عقله، فطلب(عزيز)من العازفَين عزف أغنية(سلو قلبي).

طار أبو شفيق فرحا:"طول عمرك منفتح، ملحد وعم تطلب أغنية تمدح الرسول عليه السلام؟".

فتمتم الجميع بالصلاة عليه، ما عدا عزيز، الذي اكتفى بهز رأسه.

ساد الخشوع لكلمات القصيدة ولحنها المُعجِز، ولغناء الصديقة(ميشلين) الرخيم .

حين وصلت إلى :

(وعَلّمَنا بناء المجد حتى ** أخذنا إمرة الأرض اغتصابا.)

قاطعها المحامي:"هذا البيت يؤكد أن الفتوحات الإسلامية كانت استعمارية غاصبة".

صفّق له عزيز:" أحسنت، لا ينقصك الذكاء".

انبرى أبو شفيق يدافع، محتجا بأن النبي بشّر أصحابه وهو يحفر الخندق بفتح الشام واليمن وفارس والقسطنطينية، وأثنى عبدو على كلامه، فقام عزيز يفند التاريخ محتجا بأدلة دامغة مما ورد في كتب التراث، وحدد كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، والبداية والنهاية لابن كثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير، حيث ذكروا شروط المسلمين عند حصار البلدان المغزوة، بأنه كان أمام تلك الشعوب ثلاثة خيارات:

الدخول في الإسلام أو دفع الجزية والعيش كأهل ذمة في ديارهم، أو الحرب والقتل والسبي وأخذ غنائمهم.

احتدم الجدال والصراخ العصبي، والاتهام بالتجهيل والتكفير، فقام عبدو يهدّئ الحضور ثم قال:"حسنا، سمّوها فتوحات، المشكلة ليست في التسمية، ولكن كان الأجدى إرسال المبشرين كما فعل حواريو المسيح عليه السلام، وتحَمّل تبعات الدعوة، بدل الغزو والقتال، ثم هناك أمر أهمّ، فما دام الهدف نشر الدعوة، وقد تمّ لهم ذلك فلماذا استقروا في تلك البلاد وحكموها مئات السنين إلى يومنا هذا؟ صار العرب أهل البلاد وصادروا ممتلكات و لغات البلاد المفتوحة بحجة أن العربية لغة القرآن ولغة أهل الجنة، وصار السكان الأصليون أهل ذمة، فهاجر منهم من هاجر، وأسلم منهم من أسلم حفاظا على روحه وتخلصا من دفع الجزية الباهظة. وها هي النعرات القومية ما زالت تتأجج ضد العرب في إيران وتركيا وشمال أفريقيا. فقاطعه (عزيز):" وفي كردستان أيضا".

فهز عبدو رأسه موافقا.

استعر النقاش حتى كادت السهرة تنقلب إلى عراك، حين رفع الطبيب العود هاجما على عزيز ، لولا أن دَفَشه أبوشفيق إلى الخلف.

ثم انبطح الجمع أرضا حين خرقت طائرة عدوة جدار الصوت فقرر عبدو:" أنتم تعلكون التاريخ وهم يصنعونه".

ثم ختم الجلسة:" الصراخ حجة الضعيف، سهرة الطرب حولتموها إلى نقاش ديني، وأؤكد لكم أنكم لو فتحتم موضوع طبخة الملوخية بالأرانب لانحرف النقاش إلى جواز أكل الأرنب من عدمه".

****

معرض الكتاب يتثاءب.

أصرّ عبدو على صديقه أن يبكّرا في الذهاب إلى المعرض، تفاديا للازدحام، فابتسم أبو شفيق ولم يُعقّب.

كان المدخل مريحا جدا من حيث التنظيم اللوجستي، والملصقات الإعلانية الجذابة .

انطلق أبو شفيق مباشرة نحو أقرب جناح، فاستوقفه عبدو:" هيك خبط لزق رايح؟ تعال ناخذ قوائم بأسماء الكتب حسب دور النشر كي تنتقي الكتب بدقة وتمهل".

** "عنجد مَرّات بتضحّكني، يعني شايف الناس واقفة طوابير عند قسم الاستعلامات، تعا معي تعا".وشدّ عبدو من ذراعه فمشى.

لأن أبوشفيق شجاع وصادق، فلو سألته متى قرأت آخر كتاب، لفَرَط من الضحك، وأشار بكفه إلى الخلف، فتفهم من إشارته زمنا تليدا. هذا ما جعله يمسح الطاولات والرفوف بنظرة عجلى دون تدقيق في العناوين.

++"بشرفي يا أبوشفيق أنت جاي معي خجلا ومن أجل الكزدرة".

**"لا يا زلمي هلق بتشوف".

شاهَد عبدو ازدحاما ملحوظا في أحد الأجنحة، فطار إليه، كان التهافت على أغلفة لامعة مبهرة الألوان والتنسيق فقرأ منها:الأبراج تتكلم/ الحلويات العربية فن وذوق/أنت الطاهي/كيف تصبح مليونيرا في أسبوع/ دليلك إلى الرشاقة بلا ريجيم/الطب النبوي/تفسير الأحلام/الحجامة شفاء من كل داء.

حشر أبو شفيق نفسه وأفلح في الحصول على النسخة الاخيرة من كتاب(دلّل كرشك مع الشيف سعيد).

فوجئ عبدو بالممرات تئن وتشكو من مشهد الرواد وهم يتنقلون بين الأجنحة بأيدٍ تطوّق الخصور وكأنها في حديقة عامة، أو على كورنيش المنارة ببيروت.

سرح مع العناوين الفكرية والأدبية الجادة فرأى دمعة تنحدر على خدودها.

أسرع في مشيته، فاستوقفه تزاحمٌ جادٌ هذه المرة، حول كتاب الفتنة الكبرى، وحول عناوين دينية لا تخلو من انتصار لهذا المذهب أو ذاك فدمعت عينه هوَ.

لم يرغب عبدو بشراء الكتب، وقد أذهله ارتفاع أسعارها بشكل مبالغ فيه، وأقنع نفسه بأن المعرض يُقام في فرانكفورت سنويا، فما الداعي لحمل كتب سيجد مثيلها هناك؟ وقبل أن ينعطف لَفت نظره عنوان عميق(المسلمون بين التاريخ والمريخ) فاشترى نسخة له وأخرى لصديقه.

فتّش أبو شفيق عن عبدو، فوجَده يُحدّق بحزن في رجل جالس أمام قِسم لا تتعدى مساحته ٣ متر مربع، يلف رجلا على رجل في شرود شاعرٍ مُلهم.

تقدم عبدو، سلّم عليه، وراح يتأمل دواوين الشعر:" واضح طبعا إنو حضرتك مبدع هذه الدواوين، وأُقسم بألمانيتي أنك لم تبع منها نسخة واحدة، وربما لن..".

هز الشاعر رأسه بِحرقة.

قال عبدو بأسى شفيف:"رحم الله أبوحيان التوحيدي".

فتنهد الشاعر سائلا:"معك ولاعة ؟".

****

عبدو في المقهى الشعبي.

مثل كل السائحين، عبدو تُغريه الأماكن التراثية.

في طريقه إلى مسجد جديد في(البسطة التحتا) استوقفه المقهى الذي يشغل رصيف المشاة، وأصوات لاعبي الورق والنرد، كاد يكمل طريقه لكن عبق التاريخ المنقوش على القناطر شدّه إلى الجلوس. لم يحفل بمستوى النظافة غير اللائق بسويسرا الشرق، ولا بمنظر الحاويات المتخمة.

ناداه متقاعدٌ مُهندم، على قسماته الجادة آثار رتبة عسكرية بائدة، انتجها تراكُم سنوات الخدمة دون أي إنجاز عسكري لافت:"تفضل حاج". فتفضل عبدو وقد وجد مُجابِلا له يحتفي به.

قطع عبدو الطريق على العجوز، وأخبره قصته من الألف إلى الياء.

****"ومين قلك إني بدي إسألك عن كل اللي خبرتني عنو؟".**

****"بشرفك بدينك ما كنت بدك تسألني؟".**

****"مبلا مبلا، يحرق حريشك شو حربوء، صرت متل العرب تلقطها عالطاير".**

****"عبدو، شو رأيك نلعب شطرنج؟".**

++"كنت ألعبها ببراعة قبل إسلامي، لكنها محرّمة، تشبه العكوف على الأصنام".

****"يا زلمي حُط بالخُرج، نتسلى شوية قبل ما يؤذن".**

++"مستحيل، إما أن تطبق أحكام الدين كلها أو لا تطبقها، فعيب أن نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، كما يفعل اليهود".

إحدى أذني عبدو كانت مع تبريرات العجوز:" التحريم لم يرد في القرآن، وما ورد في السُنة، ربك يعلم مدى صحته".

والأذن الأخرى كانت تهتز كلما سبّ لاعبو الورق الدِينَ لبعضهم، وزلزلوا عرش الرحمن بتشقيعات موجهة إليه، رغم أنه لا يشاركهم اللعب، ولا حتى يتفرج عليهم.

هم أنفسهم الذين كانوا يحمدونه قبل قليل، كلما نجا أحدهم من أكل الليخة، أو فاز على خصمه في لعبة الطاولة بالضربة القاضية.

فخاطبهم بهدوء حكيم بوذي:"أحبائي، ما دخل الله بالأخطاء التي ترتكبونها أثناء اللعب؟ أعرفتم الآن لماذا حرّم الله هذه الألعاب؟".

."حِل عنّا يا زلمي، شو دخلك فينا، عم تهدي علينا بالمكسيكي؟ يعني مش مكفينا المشايخ اللي عِنّا، حتى يجينا شيخ ألماني؟!!". خاطبَه شاب جالس خلفه.

ـــ(من تدخّل فيما لا يعنيه لقي ما لا يُرضيه) قالها شاب نزق. تبدو عليه سيماء شهادة جامعية لم تجد عملا. بلهجة شبه تهديدية.

وقام ثالثٌ في وجهه علامة فارقة من سكين مسنون:" روح انقلع عالجامع، ما سمعت الأذان من ربع ساعة؟

مسكين، تخوزق و خسر ستة وعشرين حسنة".

فقهقه اللاعبون.

****

عبدو خارج الجماعة

عبدو ليس بحاجة إلى طرح سؤال يعرف جوابه، يعتبر ذلك طق حنك فارغا، لذا لم يسأل عن سبب تكوّم النفايات أمام الأرصفة، في دولة تنهار، لكن العجب استبد به حين رآها أمام المسجد.

المصلون يدخلون مسرعين لإتمام النوافل، وقراءة ما تيسر من القرآن، قبل إقامة الصلاة، غير آبهين بروائح كريهة يَسدّ بيتُ الله أنفَه قرفا منها.

خفّ عبدو إلى دكان قريب، اشترى كفوف نايلون و رزمة أكياس كبيرة، فتح أحدها ووضع الباقي قرب مدخل المسجد، وراح يجمع علب الدخان الفارغة، وقناني عصير تغيّر طعمه بعد ان كان لذة للشاربين،

نصف بطيخة ذابلة، كيس نايلون نهشته القطط والكلاب طمعا في العِظام، ربطات خبز متعفن، أنصاف سندويتشات فلافل، وهمبرغر، فتساءل:" يتدافعون على الأفران طلبا للخبز، ويرمونه في القمامة !! يشترون أضعاف حاجتهم ويشكون الفقر والحاجة".

ضحك أحد رواد المقهى هازئا به مرة أخرى:"زبال ألماني بس حليوة وشخصية هههههه".

نهره ذو العلامة الفارقة في وجهه:" عيب عليك، تتمسخر عليه بدل ما تقوم تساعدو؟ قوموا معي، فرموا الورق، مُسرعين لمساعدة عبدو.

بدأ المصلون في مغادرة المسجد، كانوا حريصين على تقديم الرجل اليسرى على اليمنى تطبيقا للسنة المطهرة، فابتسم عبدو ولم يُفصح.

احد المصلين أثنى عليه:" والله يا عبدو علّمت علينا وحطيت علينا واحدة".

لم يفهم عبدو هذه الكناية، فسأل الشاب عنها.

الحج رمضان الذي يتباهى بأنه يختم القرآن أسبوعيا، رمق عبدو لائما:" يعني تركت صلاة الجماعة تفوتك، وقاعد تلمّ زبالة؟".

هزّه الحج عدنان من كتفه:" خاف الله يا حج، والله إن اللي عملو عبدو هو الصلاة، أما صلاتنا فمجرد حركات".

****

عبدو والمذهب الحق

على الأريكة جلس عبدو شابكا كفيه خلف رأسه، يتابع باهتمام عملية نزول المركبة الفضائية على سطح المريخ،

تناهى إليه من المسجد الذي على اليسار صوت درس شرعي، هو من المولعين بالمعرفة مهما كان مصدرها.

دخل المسجد، طرح السلام، وصلى ركعتي السنة، مُزيحا أقراصا صلصالية عن مكان السجود، فتشاغلت الانظار عن درس الشيخ، وكثرت الهمهمات حول اختلاف صلاته عن صلاة الجمهور الجالس.

كان الدرس حول حادثة (غدير خم) وأحقية الإمام علي عليه السلام بالولاية والخلافة، وقد تعالت الصلوات موجَهةً تحديدا نحو عبدو، حين سرد الشيخ الأدلة من كتب أهل السنة.

ابتسم عبدو رافعا يده، طالبا الكلام:

++ حسنا مولانا، وماذا بعد؟ ما المطلوب الآن بعد الف وأربعمئة سنة تقريبا من هذه الحوادث التاريخية المختلف عليها، والتي احتلت آلاف المجلدات دون جدوى؟".

**** إنه تاريخ يا أخي ويجب إظهار الحقيقة، التي يترتب عليها اتباع مذهب أهل الحق كي تنجو".**

++"إذا كان كبار العلماء والمراجع قد فشلوا في الاتفاق حول الحادثة، فهل هنا سيتم ذلك؟ أعلم أنك تبين الحقيقة للناس كي يثبتوا على قناعاتهم وعقيدتهم ولكن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، لأنهم ثابتون ومؤمنون عميق الإيمان بما ورثوه وما اكتسبوه من رجال الدين الغيورين الطيبين أمثالكم. طيب، عندي اقتراح يحل المعضلة، لماذا لا تُطرح القضية على محكمة العدل الدولية بلاهاي، ويَشحن شيخ الأزهر والمراجع الكرام مجلداتهم الداعمة لوجهة نظرهم في شاحنة قاطرة ومقطورة ويقدمونها إلى المحكمة؟ قد تأخذ القضية وقتا أطول من الوقت الذي استغرقته قضية مقتل الرئيس الحريري، نظرا لضرورة ترجمة المراجع والحجج التاريخية وانتظارا لتقرير المختبرات الجنائية والأثرية الفاحصة للمخطوطات القديمة. وبعد ردح طوييييل من الزمن ستظهر النتيجة ويفرح المؤمنون بالقرار إن كان في صالح الإمام أو ضده .

أنا سأفترض من الآن أن قرار المحكمة سيكون في صالحه، وأنه فعلا قد ظُلم ومعه أهل البيت عليهم السلام، فماذا بعد؟ هل سيتراجع مليار ومئتا مليون مسلم سني عن مذهبهم، ويدخلون في التشيع أفواجا؟ هذا لن يحدث ولن يُبدل أحد مذهبه بسبب قرار من قضاة غربيين أو شرقيين، مسلمين أو غير مسلمين، خاصة وأن نظرية المؤامرة ستطل برأسها، وستصدح المنابر بأن الفتنة هي الدافع لصدور هذا القرار .

ربما تقرر المحكمة فرض تعويضات مُجزية ومُحقة، فمن الذي سيدفع ومن الذي سيقبض؟

مولانا، أثارة مثل هذه المواضيع لا فائدة منها، وهي تُفرق ولا تَجمع، لماذا لا نطرح قضايا أخلاقية تربوية تُصلح الأفراد والمجتمعات، ونحاول إيجاد حلول لقضايا الحرية والديمقراطية و الفساد والبطالة والأمية والجريمة وتلوث البيئة، والنفايات، والفقر المتنامي، خاصة وأن الدول العظمى تتسابق لنهب خيرات الشعوب، ولنهب خيرات الكواكب؟

ختاما أزف إليكم خبرا علميا شاهدته قبل دقائق عن نزول المركبة الفضائية على المريخ.

انقسم الحاضرون بين مؤيد ومعارض لعبدو، فسارع الشيخ إلى التأكيد على ضرورة طرح المواضيع التي ذكرها حضرة الضيف، مؤكدا أن فكرة المحكمة الدولية لن تتحقق لأن مشاغل البشرية تنحصر في الحاضر والمستقبل، وهناك قضايا تاريخية معاصرة لم يمض عليها مئة عام، الحق فيها واضح جدا، ولم يتم طرحها على المحكمة الدولية. ونحن نطرح موضوعنا من باب تثقيف الناس وتوعيتهم على الحق المسلوب.

ابتسم عبدو مرة ثانية، وقام بعض المصلين يسلمون عليه، ويستفسرون عن قصة إسلامه.

."ممتاز يا استاذ عبدو، واضح أنك لم تختر مذهبنا مع أنه الحق الناصع كما سمعت، سأعطيك بعض

الكتيبات التي تشرحه". قالها حاج عنده علم من مجالس العزاء.

++"أشكرك. حقيقة لم أختر مذهبا محددا، بل أقنعني أبوشفيق عليه السلام بالإسلام كنظرية مجردة عن المذاهب، ثم رافقته إلى مسجده وهكذا تم الأمر. بعد ذلك قرأت الكثير عن جميع المذاهب وقررت تجاوزها جميعا، مكتفيا بإيمان العجائز، هل يكفي لدخول الجنة؟

."طبعا، ولكن بدك تشوف العجائز على أي مذهب !!".

قهقه السامعون ومعهم عبدو:"سأكتفي بكلمة طبعا، ولن أبحث عن المذهب".

."ما راح يمشي الحال، بتعلق يوم الحساب".

++"ما راح إعلق، إذا سألني الله عن هذه الحادثة فسأجادل بقوله تعالى(تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تُسألون عما كانوا يعملون).

."يخزي العين، مفزلك ما بيك شي، وإذا سألك عن المذهب الحق؟".

++"ساعتها بقرأ هاي الآية(ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعا، كل حزب بما لديهم فرحون) بس ما راح يسألني".

. أففف، وكيف عرفت؟".

++"إبحث وستعرف. المهم هاي الكهربا تبع الدولة أو اشتراك أو مولّد؟".

. "هههههه ولا واحدة من هودي، هاي طاقة شمسية".

++"أوكي، أوكي، هل فهمت قصدي من السؤال؟".

."لأ ".

++"خلي الشيخ يشرحلك".

****

عبدو والحوار الرشيق.

لم يكن أبو شفيق يغضب إلا لله، لذا رفع صوته في وجه عبدو:" من ساعة ما جيت ع بيروت وأنت داير من جامع لجامع وما عاجبك حدا، الليلة جمعت لك أصدقائي في صالوني الثقافي، وهم من تيارات إسلامية مختلفة اختلاف الرحمة، لفصل المقال في الحل الأمثل للنهوض بالأمة".

كان الضيوف من كبار المنظّرين في أحزابهم، يلبسون مما نلبس، ما عدا الداعية أبو قتيبة، الذي لم يُشاهد إلا بسروال قصير تحت قميص فضفاض ينتهي تحت الركبة، وما عدا الشيخ المعمم المحشور تحت الجُبّة والعباءة المقصّبة.

تنحنح عبدو مفتتحا الجلسة كمدير للحوار، فاعترض أبو قتيبة:" مش زابطة هيك لأنك طرف غير محايد".

ثم أجمع الحضور على أبوشفيق، كونه صاحب البيت، ويمثل المسلم البسيط المحايد.

بسمَل وحمدَل بسرعة، ثم طرح موضوع النقاش باختصار شديد، وأعطى الكلام لمولانا الشيخ الذي طزع مقدمة خطبة جمعة تطبيقا للسُنّة. ثم قرر المقرَّر والمكرَّر بأن الإسلام هو الدين الخاتم وهو الحل لمشاكل البشرية، مقدما النظريات المعروفة، والأفكار المألوفة، فقال عبدو:"حسنا، الإسلام ليس واحدا اليوم. وراح يشير إلى الحاضرين، الممثِلين لتيارات

الإسلام السياسي الناشطة على الساحة العالمية . فمن منها هو الحل؟".

****"لا تقلق يا أخ عبدو، فحين نستلم الحكم بالانتخابات الحرة النزيهة سنتوافق، فنحن كالصابون، روائحنا تختلف لكن الجوهر والتأثير واحد، ولكن بما أننا ننتهج نهج السلف الصالح قبل نشوء المذاهب فإن منهجنا هو الصحيح المنجي". قالها أبو قتيبة بلهجة واثقة.**

تنطّح له أستاذ نال الدكتوراه بدرجة امتياز، عنوانها (الحاكمية سبيل النجاة):" كلامك جميل لكن الواقع كذَّبه في مصر، يوم تخليتم عنا في رابعة".

ارتفع صوت التلاسن، فقام الأستاذ(خليفة) بالتهدئة، مقررا أن الحوار الهادئ هو المثمر، ولا داعي لنبش الخلافات، وأن أمر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها وهو إقامة دولة الخلافة .

قاطعه الدكتور:" أنت تطالب بالإصلاح من أعلى إلى أسفل، أي بدكتاتورية دينية، بينما النبي عليه السلام بدأ بالقاعدة وظل ثلاثة عشر عاما في مكة يربي ويدعو ..."

أسكت أبو قتيبة المتلاسنين مقررا:" الوضع مختلف اليوم، فلو طبقنا الديمقراطية وانتظرنا وعي الجماهير واتفاقها لقامت القيامة قبل نشر الدين الحق. الجهاد هو السبيل، وقد نجح سلفُنا الصالح بهذه الفتوحات، وبه نحن ننجح".

ابتسم عبدو مقررا:" وماذا لو قرر المسيحيون الجهاد في سبيل الله لنشر دينهم الذي يرونه الحق والخاتم، وماذا لو قرر ذلك اليهود والبوذيون والهندوس ووو؟ العلمانية هي الحل الأصوب حيث الدين لله والوطن للجميع، وحيث يُمنع رجال الدين من كل الطوائف من التدخل في السياسة والحكم".

****" سد بوزك واحد زنديق". قالها أبو قتيبة، وهو يرفع الكرسي، فحاول أبوشفيق صدَّه، لكن الكرسي نال منه، فاستل كرسيه وانهال به قاصدا أبا قتيبة، فوقع على رأس الدكتور، الذي رد الضربة بأقوى منها، فوقعت على وجه(خليفة) واختلط الحابل بالنابل والكراسي بزجاجات العصير.**

تناول أبوشفيق مسدسه، وسحب الأقسام فهدأ الجميع، وانكشف المشهد:

عمامة ممشّحة بالأحمر القاني، وسروال قصير ممزق، دكتور يسيل الدم من فمه، وخليفة الذي انتفخ جبينه بفعل الكدمات، عبدو الجالس على الأريكة وفوقه كرسي مخلّع تسيل منه الدماء، وأبوشفيق وقد تمزق قميصه الموشّى بدمه الزكي، فبدا كرشه المندلق.

++" هكذا سيكون مشهد المجتمعات الإسلامية، فكيف سيكون مع الديانات المخالفة؟". صرخ بهم عبدو وهو يلهث، بينما راح أبوشفيق يرغي ويزبد طاردا المتحاربين، مع تشقيعات لهم وللساعة التي اصطحب فيها عبدو إلى بيروت. ثم انفرد بصديقه يلفلف كلٌ

منهما جراح الآخر بالقطن والشاش، قبل أن يتساندا نحو غرف النوم لتجهيز حقائب السفر.

****

عبدو والعوانس.

كما توقع أبوشفيق تماما فقد حضر أهله وأقاربه لوداعه، اعتكف عبدو في غرفته، احتراما لخصوصية الموقف العائلي، ومنعا للاختلاط بين الجنسين، لكن صديقه أصرّ :" حط بالخُرج يا زلمي، نحن عيلة منفتحة، مش معقدين".

أخذ يُعرّفه عليهم، فاكتشف عبدو أن بينهم ثلاث أخوات ناء الزمان عليهن بكلكله، جعلهن دون المتوسط من الجمال، وحفر تجاعيد الكآبة في وجوههن.

لاحق أبوشفيق نظرات صديقه المتسائلة، فبادره:" ما إجا نصيبهن، قطعوا سن اليأس، حافظات لكتاب الله، يدرّسن علوم الدين، وربك كريم ".

جاملهن عبدو:" ستكون لكُنّ الجنة عزيزاتي، بل الفردوس الأعلى".

--" ليش نحنا ضامنين الجنة؟". علّقت الكبرى.

****" ما حدا ضامنها، بس مين لكان بدو يعبيها طالما أن عرضها السموات والأرض، خاصة وأن الملحدين واللاأدريين والنصارى واليهود والبوذيين والهندوس ووو، باختصار، ما عدا الأتقياء المخلصين من أهل السنة، كلهم في النار".أكد أبوشفيق .**

++" والله يا صديقي إذا كانت الحسبة هكذا، فلا داعي لجنة بهذا الاتساع، وتكفي مساحة صغيرة لاحتواء بعض بعض البعض من أهل السُنة، ولكن الخازوق إذا اكتشفتَ يا صديقي أن هذا البعض لم يكن الفرقة الناجية". قال عبدو ضاحكا، مع انطلاق قهقهات الحضور، ثم اعتذر عن انزلاق كلمة نابية على لسانه.

"وحِّد الله يا عبدو شو هالتخبيص؟ الحديث واضح وحدد الفرقة الناجية بأنها(ما أنا عليه وأصحابي)".

++"حسنا جميع المذاهب تدعي ذلك، لذا أعتقد أن رحمة الله أعظم بكثير مما نتوقع، وسيحاسب البشر على أعمالهم (ولتسألن عما كنتم تعملون) لا على إيمانهم بأمور هي غيبية أصلا، ولن يُحاسبوا على العبادات الشعائرية لأنها أساسا شُكر لله على نعمه، والمانِح المُعطي لا يعذب الممنوح إن لم يشكره، نعم ربما يتضايق منه لأنه ينتظر منه الحمد والشكر بأداء العبادات، ولكن لا يحقد عليه ويرميه في جهنم". أكد عبدو.

" شو هالحكي يا عبدو عم تكفر هيك، ومصيرك النار".

++"وجهنم ليست كما نتخيلها نحن، فجميع أوصافها في القرآن رمزية ومن قبيل تقريب المشهد للناس، إذ لا يعقل وجود شجرة الزقوم فيها، ووجود الشراب الذي من حميم، والجليد والزمهرير ، وطلب الماء من أهل الجنة، لأنها إذا كانت ترمي بشرر كالقصر وتُسعَّر منذ

آلاف الأعوام، فسيذوب الناظر إليها من مسافة مئات الأميال، لذا قلت هي أوصاف رمزية، ولا يعلم حقيقتها إلا الله". قرر عبدو.

."هلأ شو بدنا بهالحكي، خلينا في المهم، نحنا النسوان شو إلنا بالجنة؟". قالت الصغرى مبتسمة.

****" ما إنت دارسة الدين، سيزوجك الله رجلا فائق الجمال والقدرات، وسيجعلك ملكة جمال هناك".أكد أبوشفيق.**

. " أي أي، بعرف بعرف، وإنتا بتاخد قد ما بدك من الحور العين، ليش ما بكون إلنا الولدان المخلدون، طالما لا يوجد حيض ولا حمل ولا اختلاط أنساب؟".

****" والله يا أختي هيك ما بعرف، أجمع العلماء على ذلك، ثم إن الله لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون". قرر أبوشفيق.**

." أنا بعرف، أنا بعرف، مجتمع ذكوري بالدنيا وبالآخرة كمان". قالتها الوسطى هامسةً بِحنق بالغ.

سمعها عبدو، فابتسم قائلا:" لا تقلقي، أوصاف الجنة تقريبية أيضا، لأنها ستكون مملة بروتينها اليومي، دون العمل و تحمّل المسؤولية".

--" يُقصف عمرك يا عبدو، لكان نحنا شو مصبّرنا عالعنوسة كل هالعمر غير إنو ناخد نصيبنا بالجنة، يا خيي قبلانين بزلمي واحد حتى لو مش حلو، بس هيك طيّنتها عالآخر". قالت الكبرى.

ضحك عبدو:"منشان هيك قلت إنو الأوصاف تقريبية، وليست على حقيقتها، ولا يظلم ربك أحدا".

****"يعني ما فيك تقعد عاقل(يا رايح كتّر من الملايح) وحضرتك شربكت عقول النسوان وبلبلت أفكارهن ودايز ظهرك وتاركهن بلا حل".**

++" كيف بلا حل؟ الحل موجود، نكاح المتعة، والمسيار والمسفار". أكد عبدو .

****"اعوذ بالله من هيك حل، بذبحهن إذا بيعملوها".أكد أبوشفيق.**

++"منشان تتأكد أنكم أنانيون وأبناء مجتمع ذكوري منذ مئات القرون". قالها عبدو ثم ودّع الحضور، ودخل الحمّام كي يحلق ذقنه بالشفرة .

****

في خانة اليَكّ

ليس جديدا على عبدو زعيق المتناقشين العرب، فقد أَلِفه في سهراتهم بألمانيا، وعبر الفضائيات، لكن الصراخ المنبعث من الصالون كاد أن يتسبب بجرح غائر في وجهه وهو منهمك في حلاقة ذقنه بالشفرة.

"قلت لكِ مِيت مرّة إنو الورثة منقسمها حسب الشرع، للذكر مثل حظ الأنثيين، ما حلّك تفهمي؟". زعق أبو شفيق.

--"وأنا بقلك إنو البابا وصّى بأن لكل بنت شقة بإسمها، والباقي يتم تقييمه وتوزيعه للذكر مثل حظ الأنثيين، وهاي الورقة اللي وصى فيها بخط إيدو". صرخت الأخت الكبرى.

"بلّيها واشربي ميّتها، شققة ورقة ما بعترف فيها، وبابا الله يرحمو تقي وبيعرف الله، وشو حدد الشرع(لا وصية لوارث).

--"هلأ بتقول الله يرحمو؟ إنتا ما كلّفت خاطرك تيجي من ألمانيا تحضر الدفن، ولو جيت كنت سمعت الوصية بدَينتك".

"سدي بوزك ...".

خرج عبدو مسرعا مبللا بالماء، ومنع أبوشفيق من الوصول إلى وجه شقيقته، مرددا:"صلوا عالنبي، واخزوا الشيطان". فامتثل الجميع .

لو سمع أبو شفيق ما قالته الكبرى لعبدو:" هُوّي الشيطان بذاتو، بس إنتا مغشوش فيه". لخنقها حتى الموت، ولكن قدّر الله ولطف.

++"أريني الوصية عزيزتي". وراح عبدو يقرأها بصوت مرتفع، ويؤكد ادعاء الكبرى. ثم توجه بالسؤال إلى صديقه:" أليس هذا توقيع المرحوم؟".

****"توقيعو ما توقيعو أنا ما بفهم، هاي مجرد ورقة غير رسمية، ومين ما كان بزوّر التوقيع".**

++" صديقي، معك حق من ناحية قانونية، ولكن ضميريا ومن الناحية الإنسانية عليك أن تلتزم بوصية والدك طالما أنك متأكد من توقيعه، ثم إن الوصية في الإسلام هي الأساس وليس الميراث، حيث خصص القرآن للوصية عشر آيات وللإرث ثلاثاً، ووجدنا أن الله تعالى في أربع مواضع من آيات الإرث يعطي الأولوية للوصية في توزيع التركة فيقول {من بعد وصية يوصى بها أو دين} والآية واضحة لا تحتاج تفسيرا.

والله تعالى يكتب علينا الوصية بنفس الصيغة التي كتب علينا بها الصلاة والصيام والقتال.

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ)

ومع ذلك كله، فنحن نجد الفقه المطبق اليوم يعطي الأولوية للإرث وأحكامه، وليس للوصية.

ويصر على نسخ آيات الوصية – وبخاصة قوله تعالى: {الوصية للوالدين والأقربين} بحديث آحاد منقطع رواه أهل المغازي هو: (لا وصية لوارث).

**** " هههه أيوا هيك يا عبدو، حافظ كلمتين من تجديدات محمد شحرور، وجاي تطبقهن علينا، حلّ عنا ما راح تزبط. أنا وكّلت عني محامي والقضية بالمحكمة الشرعية، ورُفعت الجلسة". قالها أبو شفيق، ففهم النسوة المراد وسوّين هندامهن تأهبا للمغادرة، وهن يتمتمن بدعوات مزلزلة على أخيهن الوحيد. بينما وقف عبدو غاضبا، فبادره أبو شفيق:"ما تصدقها هيدي وحدة خرفانة".**

++" لا لا كلامها موزون ولا يدل على الخرف، ولكنني مندهش من عقوقك لوالدك، وظلمك لأخواتك، وهذه هي الطعنة الأولى في صداقتنا".

****

السر الأعظم.

وما أن أتم عبدو حلاقة ذقنه حتى سمع جلبة أطفال في الصالون.

أطل برأسه فرأى رتلا من البنين والبنات يعانق أبو شفيق ومعهم امرأة محجبة.

****"هيدي مرتي أم العبد البيروتية، وهودي أولادي منها".**

++"ولكنك لم تخبرني من قبل عن أم العبد هذه وعنهم، أليس كذلك؟".

****" يعني لازم تعرف سيرة حياتي كلها إذا كنت صديقي؟ وبعدين أنت لوحدك لازم تكتشف هيدا الأمر، من خلال تلميحاتي وإشاراتي، كم مرة شكيت لك عن التزاماتي المادية والعائلية بلبنان؟**

++" يا صديقي، كان يكفي أن تبوح بهذا السر الدفين الغامض طالما أنت واثق من نفسك بأنك مُحقٌ ولا ترتكب جريمة أو خطيئة تستدعي كتمان نفسك ووضعك، ثم إنك ما دمت تعتبره غيبا أو عيبا، فلماذا تطلب مني وجوب معرفته، بعد ناقص أن تحاسبني على عدم معرفتي، غريب أمرك".

****" يا عزيزي، أنا بشر، فإذا كان الله عز وجل قد أخفى جوهره وحقيقته عن البشر، وأرسل إليهم جبريل والرسل كواسطة، كي يوضحوا ذلك كله، فهل تريد مني**

أنا العبد الفقير كشف أوراقي كلها؟ كان عليك استنتاج هذا الأمر بذكائك المعهود".

++"حسنا، لماذا أنجبت هذا العدد من الأبناء، وأنت دائم الشكوى والتذمر من تكاليف الحياة؟".

****" أولا لأن الولد يأتي ورزقه معه، ثانيا لتكثير عدد المسلمين، كي يباهي النبي عليه السلام بنا يوم القيامة، ثالثا وهو الأهم بلكي طلع من نسلهم المهدي المنتظر، أو مخلّص الأمة؟".**

هز عبدو رأسه مبتسما، وهو ينظر إلى هيئة الزوجة والأبناء، ومنظر ثيابهم الرثة التي لا تشجع أحدا كي يباهي بهم. ثم توسّع به الخيال مستحضرا واقع الأمة الإسلامية على مر القرون، فسأله:" ماذا يحملون من مؤهلات علمية؟".

نفضت الأم كفيها، ففهم عبدو أنهم لم يكملوا تعليمهم.

++"عطول أنا ببعت لهم المصروف، ومكفّي وموفّي". أكد أبو العبد أي أبوشفيق.

--"لأ مش مكفي ولا موفي، منشان هيك تركوا المدارس وقاعدين بخلقتي عاطلين عن العمل".قالتها أم العبد بنزق ظاهر .

تدخّل عبدو منعا لتطور الإشكال:" المشكلة ليست في توفير مستلزمات الحياة المادية فقط، بل في التربية والرعاية والتنشئة الصحيحة، و...."

وكاد عبدو يتورط مكملا حديثه عن حاجات الزوجة، ولكن حياءه منعه، خاصة وأنه لاحظ الضيق الذي اعترى صديقه، فقام مستعدا للخروج مفسحا في المجال للمشاعر العائلية الفياضة، وربما الكِباش الأسري غير الحضاري، فاستوقفه أبو العبد/ أبو شفيق :" كل مرة هيك، بتولعها وبتهرب، بقص إيدي إذا ما عم تستغل المواضيع كلها لتمرير آرائك الدينية !!".

++ نعم نعم، ممكن جدا، لكان كيف بقولو عنك غبي و حمار؟ هههههه. بس أنت من نقل الموضوع إلى الدين كما العادة وليس أنا !!".

****

عبدو الوقح.

لم يكن من اللائق أن يدع أبوشفيق ضيفه يخرج غاضبا، على الأقل أمام زوجته وأولاده المهجورين:" ما تواخذني عبدو، كان لازم خبرك إني مجوّز وعندي أولاد ببيروت".

++" حصل خير، الموضوع لا يعنيني، المشكلة عندك".

****"وين رايح هلق؟ الطيارة بتطير الساعة 8 المسا".**

++"ما زال أمامنا وقت طويل، سأودع الشباب في المقهى".

****"برافو عبدو، هيدي أخلاق الدين، شفت كيف الإسلام غيّرك؟!".**

++"غير صحيح، هذه أخلاقي من قبل، وأخلاق أخي الملحد كارل، أنت تعرفنا جيدا، والأخلاق أصلا موجودة قبل الديانات السماوية، والإسلام جاء يتمم مكارم الأخلاق فقط كما تعلم. هل تعرف ما الذي تممه الإسلام فيها؟"

****" لأ ".**

++"جعلها جزءا من الإيمان وليست ترفا كماليا زائدا، بدليل الحديث الشريف(الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق). ولكن للأسف فرجال الدين يعتبرون العبادات

الشعائرية هي الأساس وهي الهدف من الخلق، بينما العبادات التعاملية هي الأساس، وهي التي تحقق مبدأ الخلافة في الأرض، تخيّل مثلا هل يمكن بإقامة الصلاة والصيام والتفكر والذكر وتلاوة القرآن، أن نبني الحياة ونطورها؟".

يؤسفني القول أنكم لم تفهموا معنى لا إله إلا الله، ولم تزيلوا الأذى عن الطريق. عبدتم النفس والعائلة والقبيلة والحكام ورجال الأمن والشهوات والمال والنساء، وخالفتم القانون والنظام طمعا بجمع الثروات، فنَخَركم الفساد والتقاتل على المناصب والكراسي، حتى أن الصحابة تركوا النبي على فراش الموت وراحوا يتنازعون في السقيفة على الخلافة. والذي حدث في أيام الخلفاء ومن جاء بعدهم كان أفظع وأشنع، ولا يمتّ إلى الإسلام بصلة".

****"والله عال عال (علمناه الشحادة، سبَقنا ع البواب) صرت داعية وتعلمني الدين، يخزي العين عنك، حبيبي التاريخ و السيرة النبوية مليانة بالإسرائيليات ومش كلها مزبوطة".**

++" ترقيع فارغ، فمعظم المذاهب الإسلامية تعتمد على هذه السيرة، وتدافع عنها وتؤول الأحاديث والأحداث كي تصبح مثالية، ثم إذا كان فيها إسرائيليات فلماذا لم يتم تنقيتها حتى اللحظة؟".

****" روح روح ع القهوة عند أصحابك، بلا تخبيص".**

++"مش تخبيص، لأن الواقع الحالي للمسلمين لم ينشأ من فراغ، إنما هو امتداد لما حدث عبر القرون الماضية".

****"يا خيي إنتا بتعرف شو عملت فينا الحروب الصليبية، والأتراك والإستعمار".**

++" نعم نعم، ونسيت المغول و الصهيونية، والشيوعية والرأسمالية، والرجعية العربية، وحلف بغداد، ودول الكومنولث وحلف الناتو. أما الشعوب العربية فمثالية جدا ومغلوبة على أمرها، يا صديقي كما تكونون يُوَلى عليكم، واللي بتحطو بالطنجرة بتشيلو بالمغرفة، أنتم تقدسون شيخ القبيلة، وشيخ الجامع وشيخ المدرسة وشيخ القصر، مجتمعات مادية فاسدة أنانية ظالمة ذكورية بامتياز، بدك دليل؟".

****" أي بدي ".**

++" هههههه حضرتك".

****

في وداع المقهى

صدق حدس عبدو، لم يكن بحاجة إلى مواعدة أحد، هم هم في المكان عينه، وكأنهم استأجروا هذا الركن الركين من المقهى طيلة العام، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. ما إن أطل حتى تركوا ما في أيديهم وهبوا لعناقه، مفردين صدر الجلسة له.

انبرى أحدهم يكمل حديثه:" هذا ما كتبه الله لي من رزق(إجري يا بني آدم جري الوحوش، غير رزقك لن تحوش)".

هزّ المتخرج رأسه مضيفا:(ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضكم بعضا سخريا).

++"ما اختصاص حضرتك؟". سأله عبدو.

-- "هندسة طاقة ذرية".

++ "وأين ستجد عملا في الوطن العربي بهذا الاختصاص؟ كان عليك اختيار تخصص عملي مناسب لسوق العمل في بلادكم كالزراعة والتجارة والسياحة والطب والتمريض، كما نفعل نحن في ألمانيا".

--"هذا ما كتبه الله لي و هو الرزاق".

++"عزيزي: نعم ربنا هو الرزاق بمعنى أنه بسط مقومات الرزق للعباد، ووضع القوانين وآلية تطورها، ولكن أنت تختار ما شئت منها، فلو اخترت مهنة

تمريضية مثلا لوجدت المستشفيات تتسابق لتشغيلك.

أنت وضعت نفسك في هذه الدرجة وليس الله، أَفهمُ أن ظروف الناس تختلف، ومستوياتهم المادية تتفاوت، هذا طبيعي ومفهوم، ولكن لا علاقة لله بهذا التفاوت، لأن الإنسان في هذه الحالة يكون مجبرا غير مخير، وعندها لا معنى للحساب يوم القيامة، ولا معنى للآية كل نفس بما كسبت رهينة. تخيل سذاجة من يقول بأن الله خلق الفقراء فقراء كي يجد الأغنياء من يتصدقون عليهم، أو أن الله خلق المجانين وذوي الحاجات الخاصة كي نعتبر بذلك ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم، هذا هو الظلم بعينه، والله أعدل العادلين، طبعا ليس عليهم حرج ولهم الجنة بغير حساب ولكن المتسبب بهذه الحالات المرضية هم الأهل والطفرات الوراثية، والخلل الهرموني الخ.. و قد يعترض المَغبون قائلا أريد حقي هاهنا وبأن من حقي التمتع بملذات الدنيا كالغني تماما، خاصة وأنه قد يدخل الجنة أيضا، هذا وارد، ولكنه مخطئ لأن ظروفه من صناعة الأهل والجدود والمجتمع والدولة التي يعيش فيها، ولم يحددها الله له، خذ مثلا صديقي أبو شفيق اللي طلعت كنيته أبو العبد كمان، كان وضعه في لبنان (ع الحديدة) مشابها لوضعكم ، ولكنه فكر وقرر الذهاب إلى بلدنا المتمدن، فانتعش وها هو (يخزي العين) متجوز باثنتين وعنده فيلق من الأبناء".

-- "نعم هذا هو الحل، وأنا انتظر فرصة مواتية للهجرة، المشكلة تكمن في تكاليف السفر، ولسوف أؤمنها، حتى لو اضطررت إلى بيع قطعة الأرض التي ورثناها عن جدي".

++"وبالتأكيد، أنتم أيضا تفكرون في الهجرة ".

هز الجالسون رؤوسهم قائلين:" أي أي صح عبدو ".

وصاح شابان يجلسان قريبا من عبدو:"ونحنا كمان حاطين رِجل بلبنان، ورِجل بأوروبا".

++"حسنا، هذا يعني تفريغ البلد من الشباب وانهيار اقتصاده، فلا تعجبوا بعد ذلك إن طمع الغزاة ببلادكم ونهبوا خيراتكم".

--" هههه كبّر عقلك يا عبدو، ليش نحنا شو طالع لنا من هالخيرات؟". قال المهندس .

فرد عليه صديقه:" مبلا طالع لنا كتير خيرات، بس حط الراء قبل الياء . هههههههه".

****

عبدو المشكور

رق قلب عبدو لحال العاطلين عن العمل في المقهى، ولمس معاناتهم فقال لمهندس الطاقة الذرية:" إذا كان عندك(سي ڤي) جاهز، مع صورة عن جواز السفر أحضرها إليّ الآن، سآخذها معي وأحاول أن أجد طريقة لجعلك تكمل الدراسات العليا في ألمانيا".

لم يصدق الشاب ما سمعه، طار فرحا، انهال على عبدو يعانقه ويقبّل وجنتيه:"بارك الله فيكم أستاذ عبدو، تعجز الكلمات أن تفيك حقك".

++"لا شكر على واجب، أنت بمقام ابني".

****"حقيقة أشكرك من أعماق قلبي، ولن أنسى معروفك هذا".**

++ "يا بني قلت لك هذا واجبي الإنساني".

****"لا أحد يفعلها غيرك، فعلا خدمة عظيمة أشكرك عليها".**

++" لا عليك، لا عليك، العفو".

****"لو كان يُسجد لغير الله، لسجدت لك على هذا المعروف".**

++" يا إبني يكفي يكفي، لا أحب المديح على أمر إنساني هو واجب عليّ".

**" أراك مللت من مدحي وشكري، مع أن الله عزوجل لا يمل من مدح المادحين وشكر الشاكرين، وتسبيح المسبحين من الملائكة والناس أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين (يسبحون الليل والنهار لا يفترون)(وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

بل كلما شكرته زادك من نعيمه(ولئن شكرتم لأزيدنكم) مع أن ما يتفضل به على عباده واجب عليه لأن الخلق كلهم عيال الله، ولأنه خلقنا دون أن يستشيرنا ووو"

++ " مهلا مهلا يا بني، من أين تأتي بهذه الأفكار الهدامة؟ شكرُكَ اللهَ لا يزيد في ملكه شيئا، وعدم الشكر لا يُنقص منه شيئا. معنى التسبيح ليس كما شرح رجال الدين، لأنه بهذا المفهوم يكون معك حق، حيث أن الله يسعد بتسبيح الملائكة له ليل نهار.

التسبيح يعني قيام كل ملاك وكل إنسان، والنجوم والشجر والدواب بتأدية المهمات الموكولة إليها، دون تقصير ودون خرق للقانون الإلهي".

**" والله يا عبدو تفسيرك مقبول، ولكن هل يُعقل أن يغيب هذا التفسير عن مئات العلماء والمفسرين على مدى ألف وأربعمئةعام تقريبا؟".

++"كثيرة هي المسائل التي غابت عنهم يا بني، فهم ينطلقون في التفسير بناء على ثقافة عصرهم وعلومه التي كانت محدودة جدا، فلا نحاكمهم بناء على ثقافة عصرنا وعلومه".

"هههههه وهم أيضا لا يحق لهم أن يُلزمونا بفهمهم المحدود، اليس كذلك؟".

قهقه الحضور فقال أحدهم :" والله يا عبدو هاي المرّة ما زبط معك الترقيع، شقفة شاب صغير غلَبك !!".

++"ولم لا، أنا أُقدّر ذكاءه وقدرته على المقارنة والتحليل والاستنتاج، لذا سأبذل قصارى جهدي لمساعدته في الدراسات العليا بألمانيا".

"شكرا عبدو، رائع عبدو، عظيم عبدو، حبيب قلبي عبدو، ما بعرف كيف بدي أشكرك عبدو، تقبرني عبدو...".

++"إن شاء الله أقبرك".

وقهقه الحضور جميعا.

****

الكذب الحلال.

حين وقف مهندس الطاقة الذرية، استعدادا لإحضار المستندات التي طلبها عبدو، لاحظ أن بنطاله الجينز من أفخر الماركات العالمية، وأن هاتفه النقال كذلك، أمران شائعان عالميا حيث يتفنطز الشبان بأموال أهاليهم، لكن أن يستقل الشاب سيارة باهظة الثمن فهذا أثار اندهاش عبدو :" هل هذه السيارة ملك له؟".

****"وعند والده ثلاث سيارات أفخم منها".رد أحدهم.**

++" غريب، لكنه قبل لحظات ذكر بأن عجزه عن تأمين تكاليف السفر قد يضطرهم لبيع قطعة الأرض".

****" كذبة بيضا عبدو، كذبة بيضا".**

++" للكذب ألوان عندكم، كان بإمكانه عدم الكذب، وذكر السبب الحقيقي الذي يدعوه للهجرة، وكنت سأقبل به".

****"معك حق، ولكننا بشر، والإنسان يحاول تحقيق مصلحته باستخدام طرق ملتوية تدفعه الظروف إليها، ثم أنت تستغرب الكذبة البيضاء من صديقنا، ألم تعلم بأن بعض الأنبياء قد فعلوا ذلك، سيدنا إبراهيم حطّم الأصنام، وحين سُئل عمّن فعل ذلك، أجاب(بل فعلها كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون).**

وعندما نظر في النجوم قال إني سقيم ولم يكن سقيما".

++"صحيح ولكنه فعل ذلك كي يعلمهم ويقيم عليهم الحجة.وليس بغرض الكذب".

****" إذن فعل ذلك من أجل مصلحة الدعوة، وصديقنا كذب من أجل مصلحته الشخصية. طيب والمهاجرون إلى الحبشة كذبوا على النجاشي، فقرأ له جعفر بن أبي طالب قصة المسيح الواردة في سورة مريم القريبة من قصته الواردة عند النصارى في الإنجيل، ولم يقل الحقيقة الواضحة(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ....)".**

++"يجوز الكذب في مثل هذه الحالات العامة التي تقتضيها مصلحة الوطن أو الدعوة الدينية".

"لمصلحة الوطن يجوز، ولكن الأنبياء قدوة للناس وكان ممكنا الابتعاد عن الكذب بانتهاج أسلوب آخر، واللهُ لديه كل الأساليب الشرعية المقبولة".

++" أتعلم يا عزيزي أنني إن فتحت موضوع كرة القدم مثلا، فسيخطر ببالك سؤال، هل توجد كرة قدم في الجنة، وما فائدتها إذا لم يكن هناك تنافس ورابح وخاسر وتعب وعرق؟".

"فعلا فعلا، وما جوابك؟".

++"ما بعرف، الله يعرف. ها قد حضر الفقير إلى الله مهندس الذرات".

"تفضل مسيو عبدو، هيدا ال (سي ڤي) تبعي".

++" بُلّو واشرب ميّتو، ما راح أساعدك".

**"بس إنتا وعدتني ووعد الحر دين".

++" وانت كذبت عليّ، ويمكن تكون مشتري الشهادة مشترى كمان بمصاري البابا. باي باي.".

****

الفخ.

مثل كل الألمان كان عبدو قليل الاكتراث بالعلاقات الاجتماعية، لكنه بعد إسلامه على يد أبو شفيق صار يحسبها بالمليمتر، فكيف يغادر بيروت دون أن يستسمح شيخ الجامع الذي اتهمه بالزندقة والكفر ولحق به خارج المسجد؟".

وجده متربعا على الأريكة يتمايل يمنة ويسرة وهو يلقي درس ما قبل أذان الظهر، عنوانه(أهل الفترة) أولئك الذين لم تصلهم دعوة الرسل، وراح يفصّل آراء الفرق الكلامية المتضاربة، فقاطعه شاب حضر دروسا كثيرة:" مولانا، لماذا تُرِكت العقيدة لآراء العلماء؟ كان الله عز وجل قادرا على تفصيل ذلك بكلمات واضحة، لا تحتمل التأويل والمماحكات الفلسفيةوالكلامية؟".

****" يا بني (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون).**

صمت الشاب هازا رأسه إذ أدرك أن الشيخ لا يعرف الجواب.

طلب عبدو الكلام رغم اشمئزاز الشيخ والحضور من وجوده، لكنهم كظموا غيظهم وأظهروا له العفو والتسامح المكبوت:

****" سامحك الله يا عبدو. الذي يشفع لك أنك اخترت ديننا ومذهبنا الحق، ولكن يا أخي لا تقرأكتب الفلاسفة والملحدين والعلمانيين ورجال الدين من غير**

المسلمين لأنهم سيبلبلون تفكيرك ويحرفونك عن جادة الصواب، تفضل قل ما شئت وربنا يهديك".

ردد الحضور :" آاااااااامين".

++"مولانا، والحديث للعموم، أنا جئت أودعكم لأنني مسافر الليلة مع صديقي أبوشفيق، كانت إجازة ممتعة بلقائكم، رغم أنكم أتعبتموني وأنتم تركضون خلفي للإيقاع بي سابقا. ما أود قوله في إطار موضوع الدرس هو قصة حدثت في أدغال الأمازون، حيث زار الرحالة ومعهم مبشرون مسيحيون قبيلةً بدائية جدا لها لغتها الخاصة وكان الدليل المترجم من أبناء تلك القبيلة. بعد أن رحب بهم أمير القبيلة سأله أحد المبشرين:" كم عدد أفراد القبيلة وكيف تدير أمورها؟".

فأجاب الأمير:" العدد كبير جدا وهم ينقسمون إلى عدة بطون ولكل بطن أمير ينظم شؤون أتباعه، ويوزع عليهم أدوار العمل ويجبي منهم بعض الطعام والمتاع، نوزعه على المرضى وذوي الإعاقة ولدينا قوانين للصيد والزواج بسيطة لا تعقيد فيها، وكل أمير يحل النزاعات بكلمة واحدة لا يعترض عليها أحد، ونحن نعيش بسلام ومحبة وتعاون وأمان وسعادة، نسهر يوميا حول النار ونشرب ونرقص، لا نؤذي القبائل الأخرى ولا يؤذوننا، وإذا شح عندهم الطعام نفزع لنجدتهم وهم يقومون بالمثل".

انبرى المبشر يخبره بتعاليم المسيح من عقائد وعبادات، وما ينتظر المخالفين بعد الموت من بعث وحساب وعقاب بنار جهنم، حتى تعب المترجم .

فقال الأمير :" لو بقينا دون تبشيرك على حياتنا البسيطة هل كان الله سيعذبنا بتلك النار المرعبة؟".

.."طبعا لا، لأنه لم يصلكم مبشر يعلمكم أمور دينكم ".

****" إذن لماذا أخبرتنا ؟".**

وقبل أن يجيب المبشر وقف الأمير غاضبا، فهرول المترجم نحوه يشفع للفريق، فقال له الأمير:" لولا وجودك معهم لذبحناهم، فليرحلوا فورا قبل أن ينتفض الرجال والنساء عليهم".

أنهى عبدو سرد القصة، فتعالى تصفيق الحاضرين في المسجد وتكبيرهم، منتظرين جواب الشيخ.

.." يعني يا زنديق يا ابن الزنديق إنتا جاي تودعنا أو تشوش عقول الناس؟".

وقبل أن يقوم الشيخ ليلحق به، كان عبدو عند الباب.... في قبضة مُخبر يتابعه".

****

للباطل جَولة.

تجمهر المصلون والفضوليون خارج المسجد ليشهدوا مُتعا لهم، وهم يتابعون بحواسهم الست زعيق عبدو في وجه رجل الأمن الذي كان يحاول تقييد يديه خلف ظهره:" لا يمكنك تقييد يدي، أنا لم أرتكب أية جريمة أو جنحة، لماذا تلقي القبض عليّ؟".

**" هههه معقول يعني نتسلبط عليك سلبطة، هلق بالمخفر بتعرف تهمتك".

++"حسنا أنا ألماني، دعني أتصل بالسفارة أو بصديقي أبوشفيق".

**"ممنوع تتصل بحدا، لما نوصل المخفر بخليك تتصل".

كانت السيارة أشبه بفرن متحرك، فشعر عبدو أنه سيختنق، لكنه صبر وتجلّد وراح يحاول تذكر الآيات والأدعية المنجية من الكرب، لكن الحرارة داخل السيارة شوّشت ذاكرته، فلم يتذكر إلا دعاء السفر.

في المخفر فك الحارس قيوده، ثم جرده من كل ما في جيوبه، فلم يجد هاتفه الجوال.

**" ما معك تليفون؟".

++"كان معي ولطشوه قدام المسجد متل ما سرقوا حذائي من قبل".

**"اليوم المحقق ما إجا عالشغل مريض شوي".

++" شو يعني مريض ما في حدا بدالو؟ طيارتي موعدها الساعة ٨ المسا".

**"هيك ما بعرف، أنا شغلتي أنفذ الأوامر ".

++"طيب قلي شو تهمتي لأرتاح؟".

**"ليش بألمانيا بخبرك الشرطي شو تهمتك قبل التحقيق؟ ما نحنا مستوردين القوانين من عندكن، بس أكيد تهمتك مش بسيطة لحتى نبعت حدن يقبض عليك".

حسبل عبدو وحوقل وهو يدخل غرفة التوقيف، ففوجئ بعدد غفير من الموقوفين يركزون أنظارهم عليه. طرح السلام فرد بعضهم التحية ببرود وهم جالسون، فتحسّب عبدو شرا، وراح يبحث بعينيه عن مساحة تتسع لجسده المنهك، فأفسحوا له والأسئلة الروتينية تتحضر كي تنهال عليه، فكر لحظة ووجد أن الأنسب هو الرد على الأسئلة كلها وبالتفصيل، كسبا لودهم ومنعا لأي أذى قد يصدر من القبضايات بينهم.

انشغل بال أبو شفيق على عبدو حين قاربت الساعة الخامسة موعد انطلاقهما إلى المطار.

نزل مسرعا نحو المقهى، فوجد الكراسي خالية، سأل النادل فأمال برأسه يمنة ويسرة مؤكدا:" أنا هلق جيت استلمت الوردية بدل اللي قبلي، ما بعرف شي عنو".

المسجد كان مقفلا، وليس من المعقول أن يسأل المارة.

عاد متوترا يفكر في الموقف، وكيف سيتصرف، لكنه اتخذ قراره بعدم السفر دون ضيفه مهما كلف الأمر .

في غرفة التوقيف أجاب عبدو عن كافة الأسئلة فرقّت قلوب الموقوفين لحاله، وراحوا يعلقون على الوضع:

. "شو بتتوقع تهمتك خيي عبدو؟".

++" بعتقد تهمة دينية حصرا، لأني ما عملت شي غلط أبدا".

--"دينية متل شو يعني؟".

++"ما بعرف بس أكيد حدا من المصلين اللي لحقوني هوي اللي بلّغ عني".

."ليش مش الشيخ نفسو؟".

++" أعوذ بالله، مستحيل، ما بيعملها".

_"هههه هوي اللي بيعملها وبقص إيدي إذا ما كان هوّي، شو كان بدك بوجعة هالراس إنتا كتير غلَبة، لازم يعني تتنطح للشيخ وتطلعو مقصّر ما بيقدر يجاوب ع أسئلتك؟".

."السكوت من ذهب عبدو، إنتا جاي تقيم الدين بمالطا؟".

--"دع الخلق للخالق يا عبدو ، شو بدك تغير لتغير مع ناس عم تطالب اليوم بدولة دينية وتسليم الحكم لرجال الدين، مع إنو إبن بلدك مارتن لوثر قاد ثورة تصحيحية ضد الكنيسة وسلطة الكهنوت قبل خمسمئة سنة تماما. يعني عم يطالبوا بما تخلت عنه أوروبا قبل خمسة قرون. معناتو عم نرجع لورا مش عم نتقدم لقدام".

++"يا عزيزي يبدو أنك مثقف وعلماني، لذا اقول لك: هذا بالضبط سبب تخلف المسلمين، يُرجعون كل شيء إلى الدين ورجال الدين وليس إلى العلم والقانون والدستور العادل. سكوت الناس والسلطات الحاكمة هو السبب الأهم الذي يجعل السلطة الدينية تتمادى في استغباء الجماهير كي تظل تابعة لها ولمؤسساتها النفعية. ولا بد من أحد يتجرأ لكشف الخلل والعاهة المستدامة ويصف العلاج ويبدأ في التحرك مهما كان الثمن".

--"يعني إنتا راح تعمل متل مارتن لوثر؟".

++"ليش لأ يا عزيزي وكلنا يجب أن نتحرك لتجديد الخطاب الديني".

."تحييد مش تجديد". أجاب العلماني.

++" لن نختلف على المصطلح المهم أن نتحرك جميعا يدا واحدة، لا تستهينوا بأنفسكم، رجل واحد يغير الواقع، والأمثلة تاريخيا تجل عن الحصر".

صفق الموقوفون لعبدو وقد نفخ صدورهم بالعزة والقدرة على التغيير وإثبات الذات فتحاشروا مفسحين له مكانا مريحا.

ثم علّق العلماني:" على كل حال، بكرا ما تكذب قدام المحقق، واحكي الحقيقة أحسن ما يمدوك فلقة عالدولاب، ويصير قياس رجلك ٤٨.

. هههههه أو ٦٧.

****

بلاء أم ابتلاء ؟

على وقع التصفيق لعبدو حضر الحارس غاضبا:"شو عم بصير هون؟".

****" ما في شي، مبسوطين بحكيات عبدو، يا ريت يظل معنا يسلينا هههههه!!".**

. "هههههه راح يظل معكن، راح يظل، لإنو العطلة القضائية بلّشت اليوم، وراحت لأول أيلول، إلا إذا حوّلوه إلى قاضي الأمور المستعجلة، أو إذا المدّعِي أسقط الدعوى، هُوّي وحظو".

++"مستحيل، هذا ظلم كبير، الآن أريد الاتصال بالسفارة الآن".

أغلق الحارس الباب بعنف، وسمع الحضور شتائم غير مهذبة.

****"ما تحمل هَمّ عبدو، هلّأ رفيقك أبوشفيق، بكون عم يفتش عليك، وأكيد راح يتصل بالسفارة، إلا إذا كان غبي".**

++"لا لا صديقي ذكي جدا، يكفي أنه استطاع إقناعي بالإسلام".

--"والله ع الحكي اللي عم نسمعو منك، لو ظليت مسيحي أفضل". قالها شابٌ لحيته تتجاوز قبضة الكفّ".

." وعلق شاب آخر :" بشرفي، لا نقصو المسيحيي واحد، ولا زادو المسلمين، العبور متبادَل بين المتدينين".

--"لا حبيبي إن الدين عند الله الإسلام، لكن عبدو مولع بقراءة الكتب المخالفة لنا، وهذا سيشوش أفكاره".

++"أوكي أوكي قوموا كي نصلي العصر".قال عبدو بثقة.

--"هههه صلي لوحدك عبدو، بعد كل المصايب اللي نازلة ع راسنا بدك يانا نصلي؟".

++"وأنت يا بو لحية، ما بدك تصلي معي جماعة؟".

--"أعوذ بالله، أنت تحمل أفكارا هدامة".

ابتسم عبدو وشرع يصلي صلاة قلقة، عكّرها جدال الحاضرين.

."من ألف وأربعمئة سنة والمسلمين بصلوا وبصوموا وبحجوا وربك نازل فيهن ابتلاء وبلاء عن دون البشر".

--"فعلا ما في حروب حاليا إلا ببلاد العرب والمسلمين".

قطع عبدو صلاته، وقد جانَبَه الخشوع:" أحبائي مآسي العرب والمسلمين لا علاقة لله بها وليست ابتلاء ولا بلاء، وليس لأنهم بعيدون عن الله، بل لأنهم تركوا العلم والكشف والاختراع لأسباب تتعلق بالغزوات

المتلاحقة والاستعمار والصهيونية وحكمتهم الأنظمة الفاسدة المتواطئة مع الشرق والغرب".

****"مش ع أساس(إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)؟ وإذا كان الله لا يؤيد المسلمين فمن سيؤيد يا سيد عبدو؟ تركهم يحرقون المسجد الأقصى عام تسعة وستين وترك القرامطة يسرقون الحجر الأسود من الكعبة لمدة اثنين وعشرين عاما، وتركنا في قبضة الغزاة يشردون أهلنا في فلسطين".قالها شاب فلسطيني نافر الوجنات.**

."يا خيي إنتو الفلسطينيي عنيدين وراسكن يابس، حلّوها بقى وخلصونا، حرقتو سلّافنا وسُلّاف الأمة العربية".زعق شاب عربي شقيق.

****"خاف ربك يا زلمي، بتلوم الضحية وما بتلوم المجرم، إحنا اللي دمرنا الأمة العربية أو هني؟ إنتا واحد مضلَل جاهل بالسياسة".**

."واحد متلك اللي جاهل سد بوزك أحسن لك".

****" انا أسد بوزي يا ...".**

وانقضّ الشقيقان اللدودان على بعضهما، فسارع عبدو للفصل بينهما، مع بعض القريبين.

نال عبدو بعض اللكمات التي جرحت جبهته، فسارع أحدهم يضمد الجرح.

كالعادة فتح الحارس الباب بغضب، وشاهد عبدو:"مشكلجي كمان، والله، مش قليل يا ألماني. فهّموني شو اللي صار؟".

**** ما في عراك ولا شي، عبدو تزحلق بالحمام". قال أحدهم.**

--"واضح واضح من الغضب المرسوم ع الوجوه، بصير خير يا عبدو بصير خير، ولك أنا من لما عرفت إنو اسمك عبدو ما ارتحت لك بالمرّة!"

==="ولا يهمك عبدو حبيبي إنتا مظلوم، وربك عم يبتليك لإنو بحبك، بس الواضح إنو بحبك كتير والله يستر ما يحبك أكتر هههههه".

****

لقاء الأحبّة.

قرر أبو شفيق الانتظار حتى الخامسة والنصف فلعل عبدو يطل من رحم الغياب، لكنه لم يظهر.

أخذ جواز سفر عبدو وركب تاكسي متجها نحو السفارة الألمانية للتبليغ على سبيل الاحتياط، لأنهم الأقدر على التواصل مع الجهات المختصة.

لم ينس تذاكر السفر فتوقف عند أول مكتب لحجز التذاكر، طلب إلغاء التذكرتين، وافق الموظف فورا، فقائمة الركاب التائقين إلى المغادرة تكاد تتقيأ.

كانت السفارة قد أغلقت أبوابها منذ الساعة الثانية، لكن موظف الاستعلامات المناوب كان متواجدا. شرح أبوشفيق له الأمر فابتسم :"جئت متأخرا، سبقك إلى هنا شاب في وجهه علامة فارقة غائرة، وقدّم بلاغا للسفارة منذ أكثر من ثلاث ساعات، أخبرَنا أنه شاهد المواطن الألماني عبدو. وهو اسم مضحك حقا، فالألمان لا يسمون هذا الإسم. قد اقتاده شرطي أمام المسجد، في محلة الباشورة. مسؤول العلاقات في السفارة سيُجري اتصالاته غدا لمتابعة الموضوع".

**** " أي أي ، عرفت وين، الحمد لله أنه بخير، هيدا جواز سفر عبدو وفيه كل المعلومات".**

أخذ الموظف المناوب صورة عن جواز السفر ثم سلمه لأبوشفيق :" اترك لنا رقم تلفونك وروح ارتاح،

الموضوع صار عندنا، وهاي مسؤوليتنا تجاه المواطن الألماني هارالد مش عبدو متل ما ذكرت حضرتك .

****"يا خيي هارالد أو ضرّاب السخن، ما عندي مشكلة المهم نلحق ونساعدو".**

في المخفر صُعق أبو شفيق عندما سمع بالعطلة القضائية، شرح للحارس قصة اصطحابه عبدو من ألمانيا في رحلة استجمام بيروتية، وأنه رجل محترم متدين، صايم مصلي، النوافل عندو متل الفرائض، وسأل عن تهمته، طالبا رؤيته؟

****" أولا القصة مش قصة صلاة وصوم بس، الدين المعاملة، ثانيا ما بقدر خبرك بشيء، بيقدر عبدو يوكل محامي وهوي بيطلع على الدعوى والتحقيق اللي حينفتح بكرا، ثالثا ممنوع تشوفو".**

خرج أبو شفيق واتصل بصديقه المحامي، شارحا الأمر، فأخبره:" الدوائر كلها مقفلة الآن، والتوكيل يحتاج كاتب عدل وتوقيعا من السراي والأمر ليس سهلا كما تتخيل، غدا يوم آخر".

قبل أن يعاود الدخول إلى المخفر شاهد أبو شفيق شابا في وجهه علامة فارقة، يتجه إلى المدخل حاملا عدة أكياس، فتذكر ما قاله المناوب في السفارة.

****:" حضرتك اللي بلغت السفارة الالمانية عن عبدو؟".**

ـــ" نعم أنا، وجايبلو أكل وفواكه".

" يكثّر خيرك عمو، إنتا إبن أصل، ومسلم ملتزم كريم، ليش معذب حالك؟".

__" ما في عذاب، عبدو إنسان قبضاي وجريء، بيحكي كلمة الحق مع الدليل، وأنا ورفقاتي بصراحة حبيناه ، بعدين شو عرّفك إني مسلم، كل شي بترجعوه للدين؟ تعا معي نفوت نشوفو".

****" ما سمح لي الحارس".**

__"قلتلك إمشي معي".

حين دخلا وقف الحارس مبتسما:" أهلييييين بالمعلم أبو علي، شو جابك لعنّا؟".

__" جبت شوية أكل وفواكه وعصير ناكل سوا مع عبدو".

--" أي عراسي، لحظة".

فتح الحارس الباب ونادى :" عبدو إلك زيارة، أتاريك مدعوم يا ملعون، ومخبّا بقشورك".

++" أنا مدعوم؟ هههههه".

ثم فتح عينيه على اتساعهما واندفع يعانق أبو شفيق ، الذي دمعت عيناه حزنا.

. "مش هيدا يا عبدو مش هيدا. اللي داعمك ابو علي". قال الحارس .

وضع أبوعلي كفه على كتف عبدو :" ما تحمل همّ، الليلة إجباري تنام هون، والصباح رباح".

" بس عبدو ما معود ع الحبوس والبهدلة، وتوقيفو ممكن يروح لأول أيلول ، انا حكيت مع محامي صديق". رد أبو شفيق.

" لا لا، إياك، ما بدها محامي، إنس الموضوع، محامي من عندك ومحامي من عند المدّعِي وعيش يا كديش لينبت الحشيش، حبال المحاكم طويلة ومشربكة، اتركني أحل القصة بطريقتي. عمو، حطها حلقة بدَينتك، الطيارة بدها طيارة والصاروخ بدو صاروخ والأزعر بدو أزعر. ما بكون إسمي أبوعلي وبوجهي شوارب إذا ما خليتو يسقّط الدعوى ويبوس إيد عبدو ويمكن طيزو"

" لا يا خيي دخيل اجريك ما بدنا نحل المشكل بمشكل."

" طيب بسيطة، إيدو بَس وبلا طيزو هههههه ."

****

أبو الأحرار.

اطمأن عبدو كثيرا لما لقيه من حفاوة ودعم معنوي من أبوعلي، عانقه بدمعة الأب الرحيم:" يا بني، إن أردت مساعدتي فلا تؤذ أحدا، السجن أحب إليّ من دعوة مظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، أَن أُعاني مظلوما خير ألف مرة من أن أعيش ظالما. قاتَل الله الشيطان مغوي البشر".

****" لا تقلق، هي قرصة أذن، تعيد الحق إلى نصابه. لولا ظلم الظالمين ما كنتُ خرّيج حبوس. شياطين الإنس هم الأبالسة يا عبدو، ولا إبليس سواهم، ما نوع هاتفك المسروق؟"**

.....

ـــ "حسنا، وداعا الآن".

حمل عبدو حصته وحصة الموقوفين من أكياس الطعام وعاد إلى الغرفة منبسط الأسارير، تسبقه بسمة الرضا، مرفقة بالحمدلة والتعوذ من الشيطان الرجيم".

شرح لهم عبدو الموقف، فقال أحدهم:" يا شباب، ما دام أبو علي حط إيدو على شواربو معناتو انحلت قصة عبدو، منشان هيك الليلة ما في نوم، خلينا نكسبه. اللي عندو سؤال يسأل وعبدو بجاوب".

--" سَمعتك تحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه و تتعوذ من الشيطان، وهذا تناقض واضح، هل الشر من الله أم من الشيطان؟"

++" الشيطان رمز الشر والإغواء في الديانات السماوية كلها، اختلف علماء المسلمين حول كونه من الملائكة بدليل(فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس لم يكن من الساجدين) أم (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ومنعا للتعارض بين الآيات تَمّ اعتبار الاستثناء في الآية الأولى، استثناء منقطعا، أي أن إبليس ليس من جنس الملائكة. ومهما يكن جنس الشيطان وانتماؤه فهو يجري في الإنسان مجرى الدم، وهو يعادل النفس الأمارة بالسوء. وما دام الله قد خلق إبليس وأمهله إلى يوم القيامة إذًا فالخير والشر من الله، ولو لم يخلقه لكنا جميعا كالملائكة".

****"وما رأيك بقصة خلق آدم إذًا؟".**

++" هذه القصة سابقة للأديان السماوية، وهي محاولة بدائية للإجابة عن كيفية نشوء الحياة على الأرض، وهي تناسب ثقافة وعلوم الأزمنة السحيقة التي صيغت فيها، حيث ندرة العلم والكشف والاختراع بدليل أن في القرآن آية تأمرنا بالنظر في ذلك(قل انظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة).

عليه فيجب اعتبار نظرية النشوء والارتقاء محاولة تندرج تحت الأمر الإلهي، ولا تعارض الدين، وإلا لاعتَبر الله قصة آدم نهائية، ولم يأمرنا بالنظر في كيفية

بدء الخلق. ثم تخيلوا معي، لو أخبرهم القرآن آنذاك عن الخلية الواحدة وانشطارها ومكوناتها وعن الطفرات الجينية والهندسة الوراثية الخ... ماذا سيقول الناس عنه؟".

****"لكن رجال الدين يعتبرونها التفسير الوحيد لنشأة حياة البشر، ويرفضون ما يتوصل إليه العلم في هذا الصدد".**

++"يا عزيزي، لقد جعلوا من الحبّة قُبة، وراحوا يفصلون الدين ويوسعونه حسب وجهات نظرهم حتى لم يعد سهلا ميسرا، واعتبروا القصة حقائق ثابتة، وألبسوها ثوب القداسة كونها من القرآن الكريم، ثم إن الحكمة من نشر البشر في الأرض أعمق وأعظم وأحكم من ربطها بعقاب لآدم وزوجه بعد أن عصى ربه وأكل من الشجرة المحرمة، كما أن الله قادر على أن يخلق حواء من طين، كما خلق آدم، ولا داعي لخلقها من ضلعه، كما تذكر الروايات الإسرائيلية. وكان ممكنا ألا يخلق إبليس، ويعطيه الحريات كلها، سامحا له بعدم السجود، دون عقاب، ممهلا إياه إلى يوم القيامة، يسرح ويمرح ويغوي البشر . فإذا كان الله قادرا على منع إبليس من غواية آدم ولم يفعل، فهو قد خلقه للإغواء وهي غاية محل تساؤل واستغراب، لأنه هدانا النجدين، وأعطانا الحرية للاختيار، ولا ضرورة لخلق إبليس. وإذا لم يكن قادرا عليه فهو عاجز لا يصلح كإله.

أما نظرية التطور ففي القرآن تلميحات لها، قال تعالى(وبدأ خلق الإنسان من طين) وقال أيضا(ولقد خلقنا

الإنسان من سلالة من طين) والسلالة تعني المراحل التطورية المتباعدة زمنيا، وهذا مضمون نظرية التطور الداروينية. ثم، ما دام العلم أخذ المبادرة فلنقبل بنتائج العلم، وإن كانت بطيئة، ولا نقحم القرآن في دحض الحقائق العلمية، وإثبات عكسها، لأننا بهذا التصرف نسيء إلى القرآن والدين عموما".

--" ما شاء الله عنك يا عبدو, كيف تقول هذا، بينما الله يؤكد(ما فرطنا في الكتاب من شيء)و آيات الإعجاز العلمي عديدة ومفحمة. يا عبدو أنت تقول كلاما لا يؤيده دليل (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون). صرّح بها الشاب الملتحي .

++"هل تعلم أن المقصود بأهل الذكر في هذه الآية علماء أهل الكتاب والأمم السابقة على الإسلام؟ قال عبدو.

****" مستحيل، فعلماؤنا الأفاضل يحتجون بها على أنهم هم المقصودون بها".**

++"إذن يا عزيزي أنت سمعت، ولكنك لم تقرأ، وهذا دأب الغالبية العظمى من المتدينين."

****

الفن يجمع.

الشاب الملتحي انمغص كثيرا من تصريح عبدو وقرر بثقة:" غلطان كتير أخ عبدو، المتدينون لا يسمعون فقط، بل ويقرؤون، يقرؤون ويتبحرون في العلم الشرعي، تفضل اسألني أي سؤال وستجد عندي الجواب الشافي، حافظ لكتاب الله،و اختصاصي الرئيس تحفيظ القرآن لأنني جامع للقراءات العشر ".

++" المسألة ليست فيما اكتنزت من علوم شرعية، بل في الفائدة التي حصلت عليها شخصيا، ثم كيف أفدت الناس بها؟".

****" استفدت لذة المعرفة، وتعميق الإيمان والثبات على الحق، والناس يستفيدون من دروسي المسجدية، وخطبي المنبرية وكتيباتي الدعوية التي لاقت رواجا كبيرا في معرض الكتاب، إلى درجة حسدني عليها الشعراء والأدباء والكتاب الذين لم يبيعوا نسخة واحدة من مؤلفاتهم وضاع جهدهم أدراج الرياح هههههه".**

++" لن أناقشك في جدوى علوم الشرع التي تسمونها ضرورية، فالمشهد الإسلامي يثبت أن الغالبية الساحقة من الناس البسطاء لا يحتاجونها، ويكتفون بإقامة الصلاة المتوارثة والصيام، وأنت أضعت عمرك سدى. شو بدنا بالطويلة، خلينا بالقصيرة، ما عناوين هذه الكتب؟

****" خذ عندك يا سيدي :**

. البلاءُ عملُ النساء/ المنهج القويم في ضرب الحريم / الرأي الأصوب في جواز أكل الأرنب / قول العارف في تحريم المعازف/ الدر المكنون في تحريم الفنون/ الزهد طريقك إلى الجنة، وغيرها كثير".

++" وماذا يبقى للحياة من طعم بدون الفنون والأدب؟ تصبح صحراء قاحلة."

****" برافو عبدو برافو، سؤالك قدح ذهني لتأليف كتاب جديد بعنوان (الفن والادب بين الحلال والابتذال).**

++"يا عزيزي مهما ألفتم من كتب وصرختم في المساجد والفضائيات، فالناس لن يقتنعوا بترك الأدب والفن لأنها تعادل الروح البشرية، وليست غذاء لها فقط".

ثم همس في أذنه :" إصدح بنشيد نبوي لتسلية الشباب،

فتهادت حنجرة الشيخ الشاب ب(طلع البدر علينا) بلحنها المتوارث، فإذا بالشباب يتثاءبون وينظرون إلى بعضهم نظرات استغراب، دون أي تفاعل معه.

انبعص كَيفُ الشيخ فصمت .

فهم الفلسطيني إشارة عبدو فوقف ملوحا بالمسبحة ":

شمالية ويا شمالية

والدبكة خِلقت فلسطينية.

وانتا يا عبدو يا نور عينايي

ما خلق ربي متلك في الكونا.

هب الشبان جميعا شابكين أيديهم في دبكة ارتجت لها جدران المخفر، بينما وقف عبدو في الوسط يصفق وينظر إلى الأرجل محاولا التقليد عبثا .

فتح الحارس الباب على عجل، وأطربه جو الفرح فأمسك برأس الدبكة متقافزا كلاعب السيرك المحترف.

انفضت الدبكة فبادر الحارس:" كتير حلو جو الفرح، بس الدبكة ما خلقت فلسطينية، بعلبكية وعندي الدليل".

****"لا لا فلسطينية جابوها جدودنا من جزيرة كريت باليونان، روح اقرا التاريخ".**

--"انتو الفلسطينيي كل شي بتنسبوه إلكن، حتى التراث الشعبي اللبناني عم تدعوا إنو نشأ بفلسطين".

****" نعم فلسطيني بشهادة كبار عمالقة الفن اللبناني، والمسيح فلسطيني ومعظم الأنبياء فلسطينيي".**

-- "فرحان كتير يعني؟ ما هيدا معناه إنكن شعب عنيد وراسو يابس وكلكن رؤوس ما بتقبلوا الحق".

****" ما بسمح لك تحكي هيك".**

--"ليش ناطر إذن منك، تلحس ...".

وكاد العراك ينشب بينهما لولا تدخل عبدو.

****"أرأيتم كيف ان الفن يخلق المشاكل والتفرقة، بينما الدين أورث الصمت والخشوع؟" قالها الشيخ بثقة.**

فردّ عبدو "إنه صمت القبور المحشوة بالديناميت الذي سرعان ما سيتفجر، يا مولانا، أشنع المجازر في التاريخ ارتكبت باسم الدين، وذبح ملايين الأبرياء باسم الله، المهم هلّأ انتا شو تهمتك مولانا؟".

****"واحد إبن حرام حاشاك، اتهمني ظلما وزورا بالتصرف ببعض أموال الزكاة لمصالح خاصة".**

ـ هههههه خجلان تسميها اختلاس مولانا؟ ونظر الجميع إلى كرشه المندلق.

****

قصة اللاشيء.

حزن عبدو لوضع الشيخ وقد ألمّ به الكمد والحرَج من تعليقات الموقوفين:" لا تبتئس لما قالوا، إن كنت بريئا . وأنا أظن بك خيرا. فسيُظهر الله براءتك، وإن كنت فعلتها، فاعترف وأعد المال إلى الصندوق، واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين، لأن النفس أمارة بالسوء".

****"شكرا عبدو شكرا". رد الشيخ.**

---"هههههه، يعني شو منفهم من جوابك مولانا؟ بشرفي إنو أخفى من كسب الأشعري. بدنا نفهم عملتها أو ما عملتها ؟!! "قال العلماني.

****"وإنتا شو دحشك بالموضوع، سواء عملتها أو ما عملتها؟ إذا عملتها والله ستر عليي، بدك ياني أفضح حالي كرمال حضرتك تشفي حشريتك وفضولك يعني؟".**

---" اوكي عفوا، معك حق، بس عندي سؤال، ليش ربنا يستر عالظالم ويترك الفاسد والمجرم والشرير يفعل الأفاعيل، وهوي شايف المظلوم والجائع والمهجّر والمريض الخ.. كلهم يتألمون ولا يتدخل لإنقاذهم وإحقاق الحق وإزهاق الباطل".

**"لأن هذه هي طبيعة الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء، لا دار جزاء، ولذا كانت الآخرة ضرورية جدا كي ينال كل مظلوم حقه من الظالم".

---"اوكي مولانا، بس عالقليلة يفرجينا إشارات تثبت تدخله المباشر لنصرة المظلومين، على طول القوي يأكل الضعيف، والغني يسرق لقمة الفقير ويستنزف عرقه ويزداد غنى وغطرسة، عم نشوف الثورات تنتصر أحيانا ضد الدكتاتورية بفعل زنود الثوار وتضحياتهم وإصرارهم، وهم ليسوا متدينين أصلا مثل كوبا وفييتنام وكوريا، بينما المقهور المسلم لا ينتصر، وأكبر دليل الفلسطيني، من مئة عام وهو يقاتل من أجل بناء دولته المستحقة، ويفشل لأن الباطل أقوى منه عُدة وعددا."قال العلماني.

**"إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته". قال الشيخ.

---" وليش لحتى يمهله ؟".

**"ليزدادوا إثما".

---" بالله شو؟ ما هني اذا ازدادوا إثما بكونوا ازدادوا ظلما !!. كلام غير مقنع مولانا، غير مقنع بالمرة. هاي دول أوروبا علمانية، وحاطة الدين ع جنب، وتطبق القانون العادل عالجميع من أعلى راس بالدولة لأصغر عامل عادي، وتعاقب الظالم مباشرة، والأمور فيها عال العال، ومعظمنا هون إلنا أقارب فيها".

++"مهلا مهلا يا شباب، مولانا معه حق حسبما قررت الأديان السماوية، وأنت معك حق بما اعترضت عليه، لأن فهمَنا جميعا لجوهر الإله مغلوط وسطحي جدا.

لقد تم تجسيم الإله وتشبيهه بالدكتاتور البشري تماما، لأن الناس لا يمكن أن يتخيلوا إلها مجردا، ليس كمثله شيء، لذا راح رجال الدين يقربون الصورة لأتباعهم فضلوا وأضلوا".

---"طيب، كيف نتخيل موجودا ليس كمثله شيء؟ هو أشبه بالعدم، وهكذا تتساوى هذة الفكرة مع اللاأدرية والإلحاد". قال العلماني.

++" غير صحيح، لأنك تحصر كلمة شيء في الموجودات التي يدركها البشر، فماذا لو كان هناك موجودات جديدة لا تشبه شيئا مما نعرفه؟".

****"تظل غيبا لا يمكن تصور جوهره وصفاته".**

++"معك حق، ولذلك أنا ما زلت أبحث وأقرأ للوصول إلى جواب مقنع، والفيزياء تتطور بشكل مذهل وسريع للإجابة عن اسئلة الوجود".

****"لن تحصل على شيء يا عبدو، غيرك كان أشطر، بحَث ولم يصل، لذا قال حبيبي المصطفى (تفكروا في مخلوقات الله ولا تتفكروا في ذاته فتهلكوا.)قال الشيخ.**

ـ "منشان هيك مولانا، إنت ما تعبت حالك بالبحث وأخذت الافكار المتوارثة عن اقتناع راسخ، وحصرت تفكيرك بصندوق الزكاة هههههه".

****

كيف تصنع عميلا؟

ثارت حفيظة الشيخ وانتفخت أوداجه لتكرار التهكم عليه. جمع قبضة يده وكز على أسنانه، فسارع عبدو إلى احتضانه :" والكاظمين الغيظ يا مولانا ".

****" كرمالك عبدو بس". وقذف المتهكِم بسهم من عين حاقدة تتربص.**

لم يمض على وجود عبدو بينهم سوى خمس ساعات، هي فترة كافية لدلق أسرارهم المكرورة في صدره، كلهم يعلمون علم اليقين أن الفضفضة مضرة، ومع ذلك ينساقون إليها، فتتلقفها الآذان الصديقة والعدوة.

سمعوا قلقلة مفاتيح، فسوّى الشيخ هندامه لاشعوريا.

صدق حدسه، نادى الحارس عليه:" يا هيك الدعم يا بلاش، مش قليل والله، واصل لفوق فوق. يلّا ع بيتك، مع السلامة".

التفت إلى الموقوفين هازا راسه، رافعا حاجبيه، مبتسما ابتسامة نصر تشاوفية، فصرخ المتهكِم :" بشرفي، منقوش على جبينه كلمة(منافق) هههههه، متل أعور الدجال".

--" أنا ما قريت شي، بس ما استنظفتو من لما رجع من الحمّام يشرشر مَي على الأرض، قال إسباغ وضوء قال، وبعدين صار يبالغ بإظهار الخشوع المفتعل، مطاطي راسو، ولحيتو لامست كفيه المعقودتين فوق صدره".

++" أحسنوا الظن يا شباب، يظل بريئا حتى تثبت إدانته، وأعلَمُ أن المتهم في بلادكم يظل مدانا حتى تثبت براءته".

ـ "طيب بصراحة شباب، إنتو بتآمنوا بهيك قصص متل قصة الدجال؟ أنا أعتبرها خرافة، فما رأيك عبدو؟" قال العلماني.

++"هي من الأمور الغيبية ومن علامات اقتراب الساعة ومن المسلمات التي يرفض رجال الدين التعرض لها بالنقد فضلا عن الإنكار، رغم أنها لم ترد في القرآن. ولكن ورد فيها أحاديث في الصحيحين وسواهما، ومنكرها يكفر عند معظم الفقهاء. إذن فالإيمان بها يكون من باب التسليم تماما كباقي الأمور الغيبية، ولا يجدي فيها الرأي الخاص بعدم الاقتناع، كما أن الإيمان بها لا يترتب عليه شيء، خاصة وأننا ربما لن نعاصر الدجال، فما الذي يعنينا إن كان سيوجد أم لا، وكذلك المهدي المنتظر ونزول عيسى ...."

ـ" أما أنا فلن أهرب من الجواب مثلك يا عبدو:

حين نقرأ عدة آيات تقرر ما معناه(لا يعلم الغيب إلا الله) فكيف نؤمن بأن النبي يعلم الغيب؟ خاصة أنه نفى علمه بالغيب في عدة آيات : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، وكذلك قوله تعالى:(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو). الأنعام.

حين نقرأ عن الساعة(إنما علمها عند ربي لا يُجلّيها لوقتها إلا هو) فكيف سمح علماء السلف لأنفسهم بتفصيل علاماتها الصغرى والكبرى ومنها ظهور المسيح الدجال؟

فهز الجميع رؤوسهم :" يخرب بيتك، والله، ابليس بيوخذ منك دروس. هههههه".

****

حيص بيص.

إلى أين سيذهب الشيخ الشاب بعد خروجه من المخفر؟

ليس مقطوعا من شجرة. أهله فعلوا كل ما يلزم لمساعدته، رغم معارضتهم خطّه الدعوي. إخوته في الله لم يقصروا في تسخير المعارف والوسائط. ليس مهما من كانت له اليد الطولى والكلمة الحاسمة في إنقاذه، الأهم أنه خرج.

لم يفكر كثيرا، اتجه صوب المسجد محدّثا نفسه " أخوّة العقيدة هي الأخوة الحقيقية الأعمق والأصدق من رابطة الدم والجنسية والقومية، لها الموالاة الكاملة، والبراء من كل ما عداها".

كان عناقا حارا مرفقا بالأدعية المأثورة والنبرات المجوَدة. العناق الأطول كان لشيخ الجامع، تماهى بكلمات هامسة في الأذن، حول ما سمعه من عبدو في غرفة التوقيف، جعلت الشيخ يبتسم مقررا:"لا تقلق، شايفين من هالمساطر كتير.(قالُو: لاطيلك.قالّو: صاحيلك؟ هههه)".

في المقهى وفى أبو علي بوعده، جمع الشلة حول طاولة منفردة، شرح الخطة، وزّع الأدوار، ثم طلب من كل منهم تمثيل دوره، ابتسم، طبطب على ظهورهم مودعا بعد تحديد ساعة الصفر الأنسب.

أبو شفيق كان يتحرقص في بيته، عاقدا كفيه خلف عجزه، ذارعا الشرفة جيئة وذهابا:" بلكي أبو علي ما وفى بوعدو؟".

طيب إذا وفى بوعدو، شو بيضمن لي إنو ما يخبص ويزيد الطين بلة؟ أوكي يا أبوشفيق شو فيها إذا تحركتَ ع مستوى ثاني بدون ما يعرف أبو علي، ما راح نخسر شي، واسطتين أنفع من واحدة، مع مين لازم إحكي مع مين، مع مين ؟".

ثم صفع جبينه بكفّه:" العمى بقلبك يا أبوشفيق كيف ناسي القاضي زميل الدراسة؟".

هرع إلى دفتر الهاتف، طلب القاضي، شرح المسألة ثم ابتسم حين طمأنه صديقه:" ولو يا زلمة !! هيدي شغلة بسيطة، بدنا شغلة محرزة، هلق دغري بدقدس ع التهمة بطريقتي الخاصة، وبحكي مع الجهة المسؤولة مباشرة، وبيطلع عبدو، ما تحمل همّ، انتظر مني تلفون بعد عشر دقايق".

كانت كعشر سنين من القلق والتوتر.

رن الهاتف:" أي خيي أبوشفيق، حكيت معو، وعدني خير، راح يعمل اتصالاتو ويرد عليي خبر. المهم ما تخلي حدن يلَغوِص بالموضوع، كُتر الطباخين بشيّط الطبخة".

لطم أبو شفيق رأسه:" انشالله لاقي أبو علي بالقهوة، قبل ما يكون تهوّر وعمل شي غلط".

لبس ثيابه. سارع إلى المقهى لاهثا، فلم يجد أحدا، جلس حاضنا رأسه بين كفيه، وراح يبربر :" كان خليه مسيحي، شو راح يقدم أو يؤخر. لأ ، لازم أعمل فيها داعية، يضرب حظي شو معتّر، لوين رايحة القضية ربنا يستر، ربنا يستر".

ارتفع أذان المغرب، فقام أبو شفيق يجر رجليه نحو المسجد لعل الله يستجيب دعاءه بالفرَج "انا عملت اللي عليي، أخذت بالأسباب، والباقي على رب العالمين، عبدو مظلوم ودعوتو مستجابة".

أطال الدعاء وهو في السجدة الأخيرة، فرَن هاتفه .

ترك الصلاة وهرع إلى الخارج.

***- عرفنا التهمة يا أبوشفيق ، ما بنصح حدن يتدخل بتاتا".**

****" وقّعت رُكبي، خلصني شو التهمة؟".**

***-"إثارة البلبلة في المساجد المختلفة/ إيقاظ الفتنة المذهبية/زعزعة الشعور الديني/ اجتماعات دعوية سرية مشبوهة. القضية هيك أكبر بكتير مما بتتخيل، يمكن تكون غاصت فيها جهات رسمية متناحرة وإنتا بتعرف تركيبة البلد. لو حكيتني قبل ما تتسجل الدعوى وتاخذ رقم متسلسل كان ممكن نتصرف. باي باي".**

****" شووووو ؟".**

انهار أبوشفيق أرضا، وراح يلطم خدّيه: اجتماعات سرّية مشبوهة، سرّية مشبوهة، سرّية مشبوهة".

****

ناس بعزاها ، وناس بهناها.

**** لازم أنبش أبو علي من تحت سابع أرض".قالها أبو شفيق وهو يحث الخطى نحو المقهى.**

أبو علي ليس غبيا كي يفسد خطته بالتغيب عن المقهى كمكان عام يشهد على ابتعاده عن مسرح العملية المحبوكة بعناية.

هرع أبو شفيق نحوه بأنفاس متقطعة:"دخيلك يابوعلي، علق عبدو علقة سخنة ويمكن يعلّقني معو".

---"بعرف بعرف والشباب ناطرين مني إشارة لتنفيذ الخطة، ما تخاف".

**** إشارة شو، أوعك تغلط، طلعت التهمة عدة تهم وكل واحدة أفظع من الثانية، أخطر واحدة عقد لقاءات دعوية سرية مشبوهة".**

---"وانتا كيف عرفت؟".

**** طلبت مساعدة قاضي صديقي، وعمل اتصالاتو وخبرني".**

---"الله لا يوفقك على هالخبرية، ولك يا حمار، أنا ما شددت عليك إنو ما تتصرف أي تصرف؟ قوم انقبر من قدامي قوم. خربت الطبخة كلها".

تناول أبو علي هاتفه:"أي يا كبير، إلغي العملية وكل واحد يروح ع بيتو.طلعو هني والشيخ طيزين بلباس".

عبدو والشبان كانوا في وضع مختلف، الطمأنينة تغمرهم وقد غفلوا عما يدور خارج المخفر، مشحونين بتطمينات أبوعلي الواثقة. فبادرهم عبدو:" أحبائي لعلّي لا ألقاكم بعد ليلتي هذه. إذا بقيتم على هذه الحالة فسيأكلكم الضجر، عليكم أن تنظموا لأنفسكم برنامجا يوميا جماعيا محددا بالدقيقة، متنوع العمل والترفيه، وأن تربطوه بهدف".

وراح عبدو ينظم البرنامج معهم منذ الصحو صباحا وحتى الخلود للنوم، يتخلله حركات رياضة سويدية/برنامج نظافة دوري/ جلسات نقاش فكرية/ درس تثقيفي/تنمية مهارات إبداعية/فترات ترفيهية لرواية النكت ولعب الورق ومسابقة في الشطرنج الخ..

غمرهم الفرح وراحوا يثنون عليه، فضحك العلماني:" أتدري يا عبدو، ما هو موقف الشيخ لو كان معنا الآن؟".

++" نعم سيعترض على نوع مواضيع النقاش الفكري وعلى دروس التثقيف غير الدينية وعلى فترات التنكيت ولعب الورق والشطرنج، لانها محرمة شرعا. لقد توسع العلماء في التحريم حتى جعلوا الحياة متجهمة كئيبة لا روح فيها، بينما القرآن حدد المحرمات بأربعة عشر محرما فقط، وما عدا ذلك يخضع للنهي القانوني والطبي والاجتماعي إذا كان فيه ضرر على الفرد والمجتمع".

---"ما أعرفه أن الفقهاء منعوا اللهو والمعازف والفنون لأنها تلهي عن ذكر الله". قال العلماني.

++"وهل سيظل الإنسان يذكر الله ليل نهار؟ وماذا يستفيد الله من هذا الذكر كما سبق وناقشنا هذا الموضوع. قيامنا بإتقان واجباتنا العملية في الحياة هو ذكر لله وعبادة، طالما كانت الوسائل والغايات نظيفة شريفة، والدليل ما ورد في الحديث الشريف أن الإنسان له أجر إن جامع زوجته".

--"هههه، أي هيك من الأول رطّب الجو وحكيلنا عن السكس، وعن أنواع الزواج في الإسلام وعن ملك اليمين، وعن زوجات الرسول، وقصة سيدنا يوسف".

****"انا بدي تحكيلنا عن الحور العين وعن المرأة المسلمة شو إلها في الجنة؟"**

++"حسنا حسنا، ما يطلبه الموقوفون .هههههه بعد صلاة العشاء.

****

جوجو في غرفة التوقيف .

انفتاح الباب قطع ضحك الموقوفين، حين دفع الحارس بضيف جديد:" ليه عم تدفّش هيك؟".

أغلق الباب فاستمر الشاب يبربر" العمى شو سوفاج !!".

ثم ابتسم فبدا يوسفي الطلعة.

شهق بعض الحضور دون اتفاق مسبق:"واااو بعقّد !!".

سلّم من بعيد محركا كفه"هاااي أنا جوجو".

---"هلا والله بجوجو، هلا والله، تعال تعال عندي وساع".

****"لا لا شو بدك فيه، عندي أوسع، تعا جوجو حبيبي لهون".**

لاحظ عبدو نظراتهم الشبقة الداعرة فختم التأهيلات الملغومة:" لا عندك ولا عندو، جوجو راح يقعد جنبي".

---"ميرسي عمو الحاج، ميرسي، العمى راح ياكلوني بعيونن من فوق لتحت".

++"شو تهمتك جو؟". قال عبدو.

---"تحرّش".

-"هههههه إنتا تحرّشت بحدا؟". من هون مبين سلاحك فاضي ما في شي هههههه".قال الشبِق.

---"نو نو ، أصدي دافعت عن نفسي ضد متحرّش، فهمت هلّأ مسيو؟! مزبوط ما في شي(عنّين) خلقة الله، بس بعجبك بالكاراتيه ما تحاول تجربني أوكي؟ بحركة واحدة طرحتو للشاب اللي تحرّش فيني".

غمز عبدو الشاب الشبق مشيرا إليه بكفه: "كفى".

++"عزيزي جو، الله لا يخلق أحدا ناقصا، التشوهات الخلقية أسبابها طفرات وراثية أو تشوهات جينية، ليس عليك حرج، وفي الجنة سيعوضك الله عما فاتك في الدنيا من لذة".

---"أوكي وبلكي ما فتت عالجنة عمو؟".

-"بتكون تخوزقت دنيا وآخرة هههههه". قال الشبق.

---"هلّأ ، بالآخرة ما بعرف، بس بالدنيا مزبط حالي مع حبيبي (روي) بوي فريند واحد ما بخبص وبلغوِص متل باقي المثليين".

-"هههههه ما شاء الله عنّك شو وفيّ ومستقيم !!".

****"هلق عنجد عبدو، بما أن جوجو صريح جدا وشجاع في التعبير عن ميوله التي فُرضت عليه بحكم الأمر الواقع كونه عنّين، ما ذنبه كي يعاني طيلة حياته، وما دام قد انحرف فعقابه . لو كنا في مجتمع يطبق الشريعة الإسلامية . أن يُلقى من شاهق جبل فيتحطم،**

وفي الآخرة يخلد في جهنم مؤبدا كمرتكب كبيرة ومداوم عليها؟".

++" في الدنيا يمكنه أن يُقلع عن شذوذه، ويصبر و يتوب ويعمل الصالحات، فيدخل الجنة، وهناك سيكون رجلا طبيعيا ويسمط من الحوريات ما يشاء !!".

---"اووو، نو، معناتو أنا مش أنا، إذا بدّا تتغير ميولي الجنسية. طيب مش في خمر بالجنة مع إنو محرم بالدنيا، كمان لازم يكون في الجنة مثليين!!".

++"خمر الآخرة مختلف جدا عن خمر الدنيا".

---"اوكي ما عندي مشكل يكونو المثليين مختلفين عن تبعول الدنيا، ما عندي مشكل بس ما بدي نسوان".

++"مستحيل يا جو، بالجنة ما في شذوذ !".

---"خلص اوكي ما بدي فوت عالجنة، روحو وسكّروا الباب وراكن".

****"هههه معناتو بدك تتشلوَط بجهنم لأبد الآبدين".**

---" نو نو ربنا أعدل بكتير مما بتتصور، وراح جادل عن نفسي وقت الحساب بأنو ما حدا استشارني حتى أولد بدون عضو متل باقي الشباب، والحقّ مش عليي أنا، على أهلي اللي خلفوني، وأهلي كمان ما عليهن حق، يمكن وراثة من جدود سابقين وحلّها كنّك بتحلها !!".

---" فعلا معك حق جوجو، إنتا متل العانس التقية اللي ماتت وما ذاقت طعم الرجال، شو بدها تعمل بالجنة؟".

-"أو متل السحاقية اللي ما تجوزت بس تابت وانتهت حياتها وهي صالحة تقية، راح تدخل الجنة، ويمكن ما تحب الزلمة اللي بدو ربنا يجوزها اياه، شو بتعمل؟".

++"لا لا ، ستتغير طباعها وطباع جو بالجنة، ويصبحان من الأسوياء".

**"هلق جو ممكن يمشي حالو مع الحوريات بعد ما ربنا يزبّط أموره، بس المرأة مشكلة لإنو ما إلها إلا رجل واحد".

---" ليش رجل واحد، والولدان المخلدون لمين؟". سأل جو.

++" للخدمة فقط، غرسونات حلوين كتير".

--"وين العدل عمو الحج وين؟ ما دام ما في حمل واختلاط أنساب وإنجاب بالجنة، لازم المرأة كمان تتساوى مع الرجال وتتمتع بالولدان المخلدين." قال جو.

-" عنجد مفزلك، مش قليل هالجوجو هههههه !!".

---"وإذا بدك أكتر من هيك، لازم المرأة بالدنيا تتجوز أربعة أزواج طالما صار عندنا كوندوم وموانع حمل متنوعة، بس المجتمعات العربية ذكورية ومعناتو الدين كمان ذكوري، منيح هيك!!؟". أكد جوجو.

++"لا لا الدين ليس ذكوريا، كل المذكور من أوصاف لأهل الجنة والنار هو تقريبي (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) يعني ربما أعدّ الله للنساء أضعاف اللذات المقدمة للرجال والعلم عنده وحده، أما في الدنيا فاختلاط الأنساب وارد رغم موانع الحمل التي ذكرتها عزيزي جو".

---"نيّالكن إنتو بالمانيا، السكس عندكن بالشوارع وكل شي مباح". قال جو.

++"مباح ومقنن ولكن ليس في الشوارع ، فهناك نواد خاصة للبغاء وللشاذين تشرف عليها الدولة ووزارة الصحة بأطباء أمراض تناسلية ومعالجين نفسانيين واجتماعيين. لكن عندكم هنا في العالم العربي أضعاف ما عندنا من انحرافات جنسية وأخطر بكثير، لأنها سرية خلف الجدران، بسبب الكبت الديني والاجتماعي والعيب والحرام والشرف الخ...".

---"شو بدنا بطق الحنك الفاضي، المهم هلّأ هون وين بدي نام؟".

++"نوم هون ما في لو بتتطربق السما ع الأرض، هلق بحكي مع الحارس!!!". قرر عبدو.

-"وإنتا شو دخلك عبدو، خليه هون عم يسلينا هيأتو مثقف وفهمان!!".

++" أي أي صح إنتا معجب بثقافتو هههههه".

ونادى عبدو الحارس:" بليز خذ جوجو ينام عندك حتى ما يصير مشاكل".

***-*" ميت أهلا وسهلا، ألف طلب متل هالطلب. تعا جوجو حبيبي تعا".**

فلَطم عبدو خدّيه مرارا، وقهقه الجميع .

****

من الدلف لتحت المزراب.

أي إنسان يواجه ما يواجهه أبوشفيق هذه الليلة سيحتار: أيسافر هاربا، ويترك صديقه وضيفه يواجه التهم الخطيرة بمفرده، أم يبقى لمساعدته؟

" لا لا، الأمر ليس بهذه البساطة، فإحدى التهم قد تطالني. التحقيق لم يُفتح بعد، ثم ما الذي بمقدوري أن أفعله لعبدو؟ هو ألماني الأصل، والسفارة لا تترك رعاياها، سيهرعون لإنقاذه، أما أنا فواحسرتاه عليّ!!".
هكذا أسرّ ابو شفيق لنفسه، وهو يحمل جواز سفره وما خف حمله وغلا ثمنه، متجها إلى المطار، بعد أن طمأن نفسه:"عبدو معو مفتاح البيت".

جواز سفر أبوشفيق ألماني يخوله التنقل حيثما شاء، هذا يسهل على مكتب الطيران حجز تذكرة له إلى المانيا عبر عدة رحلات وإن كانت غير مباشرة.

ابتسم لخاتم الجوازات، تناول جواز سفره، وضعه على الجهاز ثم أعاده إليه:" عندك منع سفر، إرجع من حيث أتيت".

صعق أبو شفيق وكاد ينهار أرضا:"مين اللي عملّي منع؟".

--"نحن لا نعلم، الذي يمكننا إفادتك به أن المنع صدر من المحكمة الشرعية. عليك تسوية الأمر هناك، وبعدها يرفع عنك المنع".

أُسقط في يده ورجع يجر أذيال الخيبة وهو يتمتم: "عملتيها يا (حربية) يا عانس النحس؟ هلق بفرجيكي".

هدأ قليلا ثم تذكّر : "شو بدي فرجيها، لا فيني أضربها ولا أهددها، راح زيد الطين بلة، والتهم تهمة. الأفضل أنو أسلم أمري لله، وأفاوضها للوصول إلى حل مرضٍ للطرفين بخصوص التركة".

هو الآن يوازن بين خسارتين ومصيبتين، أن يخسر المال ويُرضي أخواته، أو أن يخسر نفسه بين التهم الخطيرة وما سينتج عنها من سجن وإهانة.

قابلهن بود لافت واحترام غير معهود، وخلال دقائق كان الصلح قد تم، والوعد قد قُطع بالتبكير إلى المحكمة لإسقاط الدعوى ودفع حصص الأخوات بحب ورضى، وإلغاء منع السفر. لكن حربية تذكرت" بكرا عطلة المحكمة الأسبوعية خيي أبوشفيق".

"لا مشكلة حبيبتي، بعد غد نلتقي في المحكمة".

ابتسمت حربية:" منذ متى يقول لي حبيبتي؟! إن في الأمر إنّ !!".

عبدو كان في عالم آخر من الطمأنينة. وفى بوعده فجلس بعد صلاة العشاء يشرح العبر التربوية المستفادة من قصة سيدنا يوسف. كان الشبان يهزون رؤوسهم طربا لما فتح الله على عبدو من علم، عدا العلماني الذي اعترض قائلا :" كيف يليق بنبي كيعقوب أن يَظلم، لا يساوي بين أبنائه في المحبة والتدليل،

فيزرع الحقد في نفوسهم لدرجة التخلص من أخيهم يوسف برميه في الجب، وكيف لا يصبر، فيستبد به الحزن لدرجة ذهاب بصره؟".

++"يا عزيزي هو بشر وليس ملاكا، يسري عليه ما يسري علينا من تبدل الأحوال والمشاعر".

****"لا لا ليس مثلنا. الأنبياء قدوة لنا، أنت قلت قبل لحظات إن الهدف من القصص القرآني هو أخذ العبر والتعرف على معاناة الأنبياء وأن نتخذ تصرفاتهم قدوة لنا في سلوكنا. ثم إذا كان غير قادر على تربية أبنائه فلماذا أنجب دزينة من المخادعين الكاذبين المجرمين، كما أنه في خاتمة القصة استمر في تفضيل يوسف على أخيه فقال (وا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن). بعدين تعا لهون، كيف سيدنا يوسف خدع إخوته ووضع صواع الملك في متاع أخيه، فورّطه، كما تسبب في ذهاب بصر أبيه؟ وكيف يطلب من الله(وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن) أي أنه سهل الانقياد للغواية، وهذا يعني أنه عندما همَّ بزليخة كان قد همَّ بها فعلا، وليس كما قال المفسرون بأنه همَّ بضربها؟**

++"كل ما قلته يبدو معقولا، ولكن ما غاب عنك أن سيدنا يوسف فعل ذلك كله قبل أن يصبح نبيا أي قبل العصمة".

****"والله مانك قليل يا عبدو صرت ترقّع وتبرر متل المشايخ".**

لاحظ أحدهم ارتباك عبدو وتلعثمه فبادرهم :

-" المهم هلق شغلتونا بقصة سيدنا يوسف، لازم نطمن ع (بروس لي).

-* مين بروس لي؟

." هههههه جوجو . شو صار فيه، همَّ به الحارس والا بعدو؟

****

الكوابيس .

كيف يستسلم أبو علي لقوى الظلام كي تستفرد بعبدو المظلوم، هو قبضاي الحي يأخذ حقه بيده، ولكنه أبدا لا يظلم، ولا يطيق رؤية مظلوم تتكالب عليه الذئاب. جمع رفاقه ودار بينهم حديث مطول عما يمكن فعله لإنقاذ عبدو.

جوجو أيضا في جلسته القصيرة مع عبدو أدرك صدق براءته وطيب أخلاقه وعمق ثقافته التي تأبى المصادرة.

أسرّ للحارس بكل ما سمعه في الغرفة، وأكد له :"عبدو مظلوم واللي ظلمه و ادّعى عليه هو أول من اغتصبني وانا صبي يافع، واستمر في مصاحبتي غصبا عني بواسطة التهديد مرة، والإغراء المادي مرات ومرات، وأنا أملك تسجيلات عدة تثبت صحة كلامي . "

****" أوكي سمّعني التسجيلات".**

بعد أن سمعها الحارس فتح فمه عجبا وقال:"معناتو فعلا الأزعر بدو أزعر".

سمعا طرقا على الباب وصوت أبو علي القبضاي، فقال الحارس:"سبحان الله، أذكر الديب وجهّز القضيب. لا وقت نضيعه" وراح يُسمع القبضاي تسجيلات جوجو.

أمسك بهاتفه، طلب من جوجو أن يرسل إليه رقم الظالم المدّعي، والتسجيلات واحدا تلو الآخر ، وأخذ ينسخها ويرسلها إليه وذيّلها بتسجيل صوتي :" بكرا

الصبح الساعة ثمانية بالزبط بتكون بالمخفر، بتسقّط الدعوى، ما بهمني الطريقة. ثمانية ونُص إذا ما كانت الدعوى ملغية، راح نتصرف. ما تحاول تتذاكى وتبلّغ عني، بمسحك عن وجه الأرض إنتا وولادك واللي داعمك يا واطي".

انهارَ الشيخ أرضا. شعر ان قلبه صار في حلقه، وأن كليتيه توقفتا عن العمل، فطلب كوب ماء على عجل، ثم حادث أبو علي بصوت متقطع :" بأمرك يا كبير، كلمتك ما بتصير اثنين. ٨ بالزبط بكرا بسقّط الدعوى ".

***- "اي هيك بكون أحسن وعين العقل. شُغل اللغوصة والبعبصة تبعك لازم ينتهى، منعرف كل شي عنك، مفهوم ؟! ".**

هدأت النفوس داخل المخفر وخارجه بعد أن سيطر سلطان النوم على الجميع.

تحلّق الموقوفون حول عبدو صباحا، وهو يروي لهم كابوسه المزعج:" كان (توم أند سبايك) يلحقان ب (جيري) الصغير وهو كالغزال يبتعد عنهم، لكنهم أدركوه، أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، ثم ابتسموا في وجهه وراحوا يعانقونه".

قهقه العلماني:"واضحة القصة وضوح الشمس، ما بدها فذلكات، راح تطلع براءة. بعد شوي راح تعمل حالك متل عزيز مصر، ينقذ البلد من المجاعة عن

طريق رؤيا، كان ممكن أي اقتصادي ذكي، يلاقي الحل، بدون اللجوء إلى الأحلام ومفسريها".

--*"نسيت كمان سيدنا ابراهيم، شاف حالو عم يدبح اسماعيل، قام سنّ السكينة وبطحو للذبح وابنو مستسلم، بعدين ربنا نزّل كبش من السما يفديه به".

--* "اي ونسيتو سيدنا موسى وهوي بيبي كمان هرّبتو أمو بصندوق خشب منشان فرعون ما يدبحو، بعد ما شاف كابوس كمان".

---"حسبما قرأت أن هذه الاحلام الثلاثة وكل القصص الدينية ورد شبيهٌ لها فيما نُقل عن الهندوس و السومريين والبابليين والزرادشتية" قرر العلماني.

++"وما الذي يمنع أن يكون فيهم أنبياء ممن لم يذكرهم الله في القرآن.(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك). أكد عبدو.

--" معناتو فينا نضيف - كإحتمال - سقراط وأرسطو وأفلوطين وسبينوزا وإبن عربي والمعري كأنبياء غير مذكورين في القرآن !!" أكد العلماني.

++"لأ ما فيك تضيف عكيفك، ممكن لعند أفلوطين أوكي، أما من جاء بعد سيدنا محمد عليه السلام ما فيك تضيفهن ولا حتى كاحتمال، لأنه خاتم النبيين".

---"خلص بس تقول (قال تعالى)ما بعود فينا نحكي شي، مع إنو التخبط والدمار والفساد الذي تعانيه

البشرية يستدعي إرسال نبي جديد يحل مشاكلنا المستعصية، مش هيك شباب؟!".

هزّ الموقوفون رؤوسهم :"مزبوط، صحيح".

++"لأ مش صحيح، أولا لأن سيدنا عيسى سينزل في آخر الزمان ولا داعي لأنبياء جدد".

ثانيا(علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل إلا أنه لا نبي بعدي).أكد عبدو.

---"أخي عبدو: بالنسبة لسيدنا عيسى فلا داعي لنزوله، ولا أدري من أي كوكب سينزل؟ إذ الأَولى أن يعود صاحب رسالة الإسلام نفسه، ثم ما فائدة وجوده في السماء مئات القرون بينما الأجدى أن يستمر بيننا يصلح الأمور ويحلحل العقد والمآسي؟

ثانيا، حديث (علماء أمتي) موضوع . بعدين يا حبيبي : ليش مين ورطك بالحبس غير عالم من علماء أمتي هههههه؟".

++"ولك هيدا إبليس بذاتو، مش عالِم، ريتها تعلّم القضبان بجنابو". وقهقهوا جميعا.

****

دموع

حين أشارت الساعة إلى الثامنة كان الشيخ في المخفر يطلب إسقاط الدعوى.

--"لا نستطيع ذلك طالما تم تسجيلها برقم متسلسل، ولكن ذلك بيد الجهة العليا، سأشرح له القضية وهو يتصرف". قال الضابط .

اتصل به مُفصّلا الموضوع فقال:"هلق يعني مش شايفين الحبوس والمخافر كيف محشورة متل علب السردين؟ من الموت لنأمن لهم خبز، فاضيين للقيل والقال، وطق الحنك الفاضي؟ طول عمرهن رجال الدين يحكوا اللي بدهن اياه، ويفصّلوا ع ذوقهن، ان شالله كلما واحد اعترض عليهن بدنا ندكّوا بالحبس؟ سَكّر لي هالموضوع، عِنّا مصايب بدها حلم الله".

لم ينس عبدو وقد أسعده الكابوس أن يسجّل أرقام هواتف الموقوفين الذين تمنوا عليه أن يساعدهم للهجرة إلى ألمانيا هربا من الضائقة الاقتصادية، فقال بثقة:" أصدقائي، أشعر بآلامكم جميعا، أنا مجرد مواطن عادي، والقانون في بلادي هو الذي ينظم الهجرة واللجوء. سأرسل إليكم نسخة عربية عنه.

الهروب ليس حلا، لا بد أن تنهض دولتكم لإيجاد الحلول السريعة، وإلا فسيرحل الشيّاب قبل الشباب".

فتح الحارس الباب مناديا عبدو مع بسمةعذوب:" الشيخ أسقط الدعوى، فيك تفلّ".

ضجت الغرفة بالتصفيق و صرخات الإعجاب، فأحاطوا بعبدو يودعونه بدموع تسبق القُبل".

قبل أن يغادر التَفَت إليهم بنبرة متهدجة:" إصنعوا الفرح".

هجموا عليه حتى حجبوا عنه الهواء، فصاح ناظرا إلى الحارس:"شمالية يا شمالية والدبكة خلقت بعلبكية".

انتظمت الأرجل بلمح البصر، وراح الحارس يتقافز كالبهلوان ضاحكا، مكررا مطلع الأغنية:"والدبكة خلقت فلسطينية". فتكرر العناق.

انسل عبدو متثاقلا، دون أن ينظر إلى الخلف، وقد غامت الدنيا أمام عينيه بفعل انخفاض ضغطه، فأُغمي عليه أمام الضابط الذي أسرع لإسعافه. رفع قدميه إلى الأعلى، بينما رش الشيخ على وجهه بعض الماء، فصحا متفاجئا به.

انكب الشيخ على الرأس الممدد يقبّله. تذكّر عبدو وعد القبضاي، فقال باسما :" بَس راسي؟!"

وقهقه الجميع .

لم يصدق أبوشفيق عينيه حين فتح عبدو الباب، فهرع إليه يعانقه، زارعا رأسه في صدره، مفتعلا الإجهاش بالبكاء .

أحس عبدو ببرودة عناقه فقال:" أوكي أوكي ما هي الخطوة التالية؟".

****" هلق منطلع نحجز تذاكر لبكرا، بعد ما أختي حربية تروح عالمحكمة ترفع منع السفر ....."**

واسترسل يشرح ما حصل له في المطار بالضبط، فانتفض عبدو كالملسوع. " كنتَ ستتركني وتسافر؟!".

تلعثم أبوشفيق وهو يحاول تبرير فعلته:" يا عبدو إنتا وراك دولة بتسأل عنك، وبتطيلعك متل الشعرة من العجين، أما أنا فالدبان الأزرق ما بيعرفني وين؟".

لكن عبدو حمل حقيبته وجواز سفره وكشرةً رسمت ملامح وجهه:"بل اليوم أسافر ..وحدي ".

()"تفوو عليه واحد خاين، يا عيب الشوم عالرجال، هيدا مش بيروتي، ولا عربي ولا عندو دين".

()()" يا زلمي شو قصتك، كم مرة بدي نبهك ما بدي أي تعليق؟".

()"بشرفي إذا بعرفو لاقطعو بسناني، عم يترك ضيفو ويهرب، تفووووو عليه بلا أصل، بلا شرف. تفضّل كمّل عمو الحكواتي تفضل".

****

فنجان قهوة

رفض عبدو معانقة صديقه لا حِقدا على تركه موقوفا، ومحاولته الفرار بجلده، بل لأنه شعر منذ الصباح بارتفاع حرارة مفاجئ، وبألم شديد في الرأس .

وضع الكمامة وانطلق نحو مكتب الطيران، أسعده الحظ بمقعد على متن طائرة ستقلع بعد ثلاث ساعات إلى برلين مباشرة.

قصد المختبر لإجراء فحص الكورونا:" سأسافر بعد ثلاث ساعات".

****"مستحيل، فالنتيجة.لا تظهر إلا بعد ست ساعات كحد أدنى".**

++"طيب أعمل لي (راپيد تست) كي أطمئن ".

أجرى الفحص:" لا يمكنك السفر فأنت مصاب ولا بد من الحجر الصحي لمدة أربعة عشر يوما".

يا عزيزي، الحديث النبوي الشريف يقرر (لا عدوى، و فرّ من المجذوم فرارك من الأسد".

****" مع وجود التناقض في الحديث، ولكنه جيد إذ طلب عزل المصاب والابتعاد عنه، وهذا سبق طبيٌ علميٌ يُحسب للنبي الكريم روحي فداه".**

++" يعني ما بتتزبط الشهادة هيك هيك". وغمزَه عبدو.

**" نو نو، أعوذ بالله، حرام، فيها مسؤولية كبيرة".

أخرج عبدو مئة دولار من جزدانه، فتلمظ الممرض وفتح جفنيه:" مستحيل مستحيل عم ترشيني؟!".

زاد عبدو ورقة نقد مماثلة.

**:"لا تحاول، مستحيل".

++"يا زلمي فنجان قهوة، إطبع كلمة (سلبي) ع الشهادة، ولا من شاف ولا من دري".

سرح الممرض هنيهة، ثم فطن لحاجة عبدو الماسة، فهمس في أذنه:ألف دولار .

++" لو معي زيادة تكرم عينك، هودي ثلاثمئة إذا ما بيمشي الحال راح أفتش ع مختبر ثاني، ألف واحد بيقبل ب مئة".

**"لا لا خلص، هات المصاري. "

++" تصه تصه، ما حزرت، بعد استلام الشهادة أسلمك المبلغ".

طبع الشهادة بسرعة تعادل رغبته في القبض، فسلّم واستلم.

++"شكرا لحسن تفهّمك. لا تجعل ضميرك يؤنبك، تيسير أمور.(من فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرّج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة).

لك أجر وعليك وزر قبول الرشوة.خير هذا بشرّ ذاك، تمشاية حال يا عزيزي، المهم أنا ما عليي ذنب، لأنني مضطر، الذنب كله عليك. هكذا قرر الفقهاء.". قال عبدو .

****"هههههه، مزبوط عليّ وزر واحد، ولكن عليك من الوزر ثلاثة: وزر الراشي المحترف، ووزر مُكورن سيختلط بالأصحاء، ووزر شيطان إنسٍ أغواني".**

++"هههههه، ذكي فعلا، ولكن لو عرفتَ ما حل بي في الأيام القليلة السابقة، لفعلت أكثر مما فعلته، المهم كلانا مضطر".

****" هههه أي أي، هيدي بسمّوها الرُخص المطاطية، يا أستاذ، كل واحد بفصّل الإضطرار والدين و الفتاوى ع مقاسو، وبيعمل اللي بناسب راسو، وقفت عليي أنا ؟! الأمّة كلها ناخرها السوس. منشان هيك حط راسك بين الروس ونادي ع قَطّاع الروس، بدنا نعيش هههه."**

في المطار تأفف عبدو من زحمة الواقفين أمام كاونتر شركة الطيران، بسبب تدافعهم غير المبرر، وبسبب كثرة الحقائب التي يصطحبونها إلى ألمانيا. سمع صراخ حاجّة تتلاسن مع الموظف:" ما بدفع ولا قرش بدل وزن زايد، وما برجّع شي من الهدايا، أول مرة بزور إبني، معقولة هيك؟ كلهن شوية كشك وزعتر دقّيتُن بإيدي، وملوخية وبامية ولوبية مفرّزة وعسل ومربيات شغل البيت، ومكدوس، هودي بَس؟

--" أي خذي له بيض ولحمة ودجاج وخبز كمان منشان تكمل. يا أختي كل شي موجود بألمانيا لشو شاحنة كل هالأغراض؟ خلص زيحي ع جنب، خليني أمشّي غيرك".

اقترب عبدو منها، وشوَشها، فنادت على عامل متجوّل، نقَدَته عشر دولارات فأنهى النزاع بنجاح.

فرح عبدو لوصول دوره، كان معه حقيبة يد معلقة في الكتف، فلا داعي للوزن، لكنه صُعق عندما أعاد له الموظف شهادة فحص الكورونا، فقرّب فمه من أذن عبدو:" فيها تلاعب من حيث وقت إصدارها".

همس له عبدو :" إفتح الباسبورت تركت لك فيه حق فنجان قهوة". فابتسم الراشي والمرتشي.

ختم جواز السفر، وراح يتسكع بين معروضات السوق الحرة متحسرا على نفاد نقوده التي كان يأمل أن يشتري بها هدية لزوجته وابنته. وجلس ينتظر فتح باب الطائرة.

معتاد هو على تأخر الطائرات لأسباب عدة، يلقي برأسه إلى الخلف، ويغفو، لولا أن فاجأه حاجٌ فضولي:" ع برلين؟"

++"نعم يا أخي".

****"يخزي العين بتحكي فصحى منيح، عربي عايش بألمانيا؟".**

++" لا، ألماني ألماني، وإسمي عبدو، كنت كاثوليكي وأسلمت، أقنعني بالإسلام شخص لبناني كان صديقي عندو نسوان ثنتين إسمو أبو العبد وأبو شفيق مع بعض، واسم أختو حربية، وإسم مرتي كارلا وو ... "

****" خلص خلص، شو كفرنا لما سألناك؟ العمى يا زلمي شو خلقك ضيّق".**

++" شكرا على دعوتك لي بالعمى، عسى إن تحققت أن أرتاح من رؤية الذي رأيت في سويسرا الشرق هههههه".

****

عبدو يبُقّ البحصة .

الذي جرّب يوما أن ينجو من مخالب رجال الأمن يدرك ما يدور بخلد عبدو، أثناء جلوسه في القاعة انتظارا لفتح باب الطائرة، ودخول المسافرين. تصبح حواسه الست آذانا مرهفة كلما سمع مذيعة الاستعلامات تطلب أمرا ما، يحسب كل نداء موجها إليه، ثم يتنهد وهو يهز كلتا رجليه، يتلفّت حوله ولا يرى ، يبتسم لمحدثه دون أن يعي ما قال. يزور دورة المياه مرارا فلا تُسعفه المثانة إلا ببضع قطرات، فيغسل وجهه ويعود. لاحَظ شاب . عنده علم من أبيه . ما استبد به من قلق:" لا مبرر لكل هذا القلق والاضطراب، كله بأمر الله(وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)".

++" حسنا حسنا أحفظُ هذا الحديث غير الصحيح في معناه، وإن ذُكر في صحيح الترمذي، فالله لا يكتب سلفا ما يضر العباد ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، وإلا كان عابثا ساديا دكتاتورا ظالما، كهذا الربان الذي يمر أمامنا الآن. تخيّل إن كان ساديا مريضا، وقرر الهبوط بالمظلة تاركا الطائرة تترنح وتسقط بنا، أيعقل أن يكون هذا الشر من الله؟ لاحِظ التشابه هنا بين رب ورُبّان.(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).

{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) هذا تناقض صارخ بين الآيتين، مهما أوّل المؤولون ورقّع المرقعون وجمع الجامعون بين النقيضين. من وين حضرتك؟".

"فلسطيني".

++" أعانكم الله، أوكي أنتم تقاتلون لاسترداد فلسطين عبثا وتعديا على حق كَتبه الله لأعدائكم (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)".

"هذه كانت خاصة بوقتها، ذلك أنهم كانوا موحِّدين وأهل فلسطين الكنعانيين كانوا وثنيين، والآية تؤخذ هنا بخصوص السبب لا بعموم اللفظ".

++" ترقيع جديد وتبرير للظلم والاعتداء. ما دام الله يريد تخليص عباده الموحدين من التيه في سيناء . إن صحت روايات الكتب المقدسة . فقد كان بقدرته التي لا تُحد قادرا على أن يُحوّل سيناء إلى جنة حقيقية، يغار منها الكنعانيون والفينيقيون والأشوريون والصينيون، ولا داعي لتشجيعهم على احتلال بلاد الأبرياء، حتى وإن كانوا وثنيين، فهذه سابقة خطيرة، نسج المستعمرون المعاصرون على منوالها، فاستعمروا البلدان الضعيفة ونهبوا ثرواتها حاملين الكتاب المقدس بحجة تطوير تلك البلدان وتنميتها، فامتلك

الأفارقة الإنجيل وامتلك البيض الأوطان. وكان بإمكان الله وبكل بساطة أن يأمر التائهين بطلب الإقامة كضيوف محترمين في أرض كنعان، كجالية لاجئة مظلومة هاربة من سيف فرعون".

****"قلت لك هذه الآية تؤخذ بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، أي خاصة بزمنها القديم ولا تُعمم".**

++**"حسنا دلني على كتاب يتضمن تحديدا دقيقا محكما للآيات الخاصة بهذين النوعين، شرط أن تكون مدعمة بأحاديث صحيحة، ولماذا الأحاديث؟ فالله كان قادرا على تصنيفها وتبويبها هي وآيات الناسخ والمنسوخ، دون أن يتركها للعلماء المتناحرين من كل المذاهب والفرق. بصراحة يا صديقي: أنا لم أعد أثق بالكتب المقدسة كلها لأن صورة الإله فيها لا تليق بإله عادل رحيم لطيف ودود، وتظهره عنصريا يجعل اليهود التائهين سارقي ذهب المصريين شعبَه المختار، ويجعلنا خير أمة أخرجت للناس. يخلقنا متساوين ثم يصنّف عباده كما يحلو له. الإله العظيم الرحيم لا يحاسِب بشرا خلقهم دون أن يستأذنهم ثم يطلب منهم أن يؤمنوا بوجوده الغيبي ووحدانيته التي لا يقوم عليها دليل مشاهد ملموس، ثم يغفر الذنوب جميعا ما عدا الشرك، ويحاسب الناس على التقصير في عبادته وذكره وتسبيحه ليل نهار مع أن العبادات واجب أخلاقي منا كشكر له، ولا داعي لتكرار هذا الشكر. الأولى والأعدل أن يحاسبنا على أعمالنا فقط، ولا يحاسبنا على أمور غيبية(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـٰكِن**

يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) لاحظ التناقض الصارخ، يُضل من يشاء ثم يحاسبه على ما عمل. والآية الأوضح يُقسم الله فيها(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)وعشرات الآيات المشابهة الرائعة في معناها، ويعجبني تقرير العلماء بأن الشهيد يُغفر له ما تقدم من ذنبه عدا ما يتعلق بحقوق العباد. معذرة، سأبحث من جديد عن الإله الرحيم العادل".

****" استغفر ربك يا رجل، وتَشاهَد، فأنت مقبل على الطيران في الجو ومُعرّض لأي خلل تقني أو طبيعي يُسقط الطائرة فتموت كافرا".**

++"هههه لعلي أكون المؤمن الوحيد يا صديقي، فقد دعوت الله وأنا موقوف كي ينجيني من تهمةٍ لفّقها لي شيخ الجامع، فاستجاب دعائي ونجاني على يد القبضاي أبو علي والشاذ المغلوب على أمره جوجو.

يعني المتحدث باسم الله ظلمني وآذاني، والمتحدث باسم الشيطان نجاني .فلا هذا صادق في دعوته إلى الله ولا ذاك بعيد عن الله، أتدري لماذا؟ لأن الله غير ما تتصورون. أفهمت شيئا مما قلت؟".

****"لا والله".**

++"ستفهم يوما، حين تخرج من دائرة التقليد الأعمى، والرأي المنحاز المسبق الراسخ، وتنظر إلى التراث بعين العقل الناقدة".

**"هههه وبلكي متت قبل استكمال البحث؟".

++"ساعتها قف بجانبي يوم الحساب، واسمع مجادلتي عن نفسي، واحفظها حرفا حرفا كي تدافع عن نفسك".

**"عال والله، وشو عرفك إني سأحشر بجانبك؟".

++"بسيطة، الحديث الجميل يقرر (المرء مع من أحب)".

**"لكان خليني أحبك من هلق قبل ما نفترق وهات لك بوسة".

++"ع خدي ع خدي مش ع رقبتي. يا جوجو المؤمن".

**"مين جوجو هاد؟".

++"هههه، بجهنم بتتعرف عليه".

****

طق حَنَك .

وقف عبدو قائلا:"عن إذنكم أجدد وضوئي".

****"خجلان تقول رايح أشُخ؟".**

عبدو مهذب، لم يُجب الحاجّ احتراما لسنّه، وحين عاد وجد مكانه شخصا يهزّ رجله باستمرار، ناداه أحدهم علوشي.

++" واضح يا علوشي إنك متوتر، بتخاف من ركوب الطيارة؟". سأله عبدو.

****" ما بخاف، بموت خوف، عكل حال اللي بيخلص عمرو بدو يموت(لكل أمّة أجل، فإذا جاء أجلهم، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)".**

++"إذا سقطت فينا الطيارة بتكون الأسباب متعددة، ضروري يكون خلص عمرنا كلنا سوا؟ بعدين قال تعالى لكل أمّة أجل، ولم يقل لكل إنسان أجل؟". رد عبدو .

****"أي طبعا(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).**

++" هذه من الافكار الدينية الشائعة ولكن أعتقد أن عمر الإنسان ليس محددا سلفا، بدليل أننا نُعدم القاتل لأنه أزهق روح إنسان وقصّر عمره. المنطقي والمقبول عقلا أن تُكتب أعماله أولا بأول، ولو كانت مكتوبة سلفا .كما قيل شقي أم سعيد / كافر أم مؤمن، صالح أم طالح الخ.. . فما فائدة الملكين اللذين يحصيان أعمال

الإنسان(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) معناتو تسجيل الأعمال والأقوال تحصيل حاصل وتكرار وعبث !!".

****"لأ إنت خلطت بين علم الله و أعمال البشر، الله يعلم ما سيكون من أفعالك ولكنه لا يتدخل فيها (كل نفس بما كسبت رهينة)".**

++"كيف لا يتدخل وقد قال (من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يُضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد في السماء) وقال (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) وقال(وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)".

****"هيك ما بعرف، صار بدها عالِم مختص يرد عليك."**

++" لماذا تُناقش ما دمت غير مختص؟ الدين هو الموضوع الوحيد الذي يحشر المتدينون أنفسهم في الدفاع عنه من وجهة نظرهم، مهما كان مستواهم العلمي أو الثقافي وهذه معضلة كبيرة".

****" أي وحضرتك عم تفوت بمواضيع الدين كمان، وما منعرف مستواك العلمي والثقافي".**

++" صحيح ولكن من خلال النقاش والحجج التي أعرضها يمكنك قياس معرفتي. ثم لماذا تعتقد كمتدين أن علم الله يصبح ناقصا، إذا لم يُحط بالجزئيات

والتفاصيل البسيطة كسقوط ورقة شجر في مجاهل افريقيا، أو ولادة فأر في حوض الأمازون؟ ما دام هناك إله خالق مدبر فيكفيه أن يضع القوانين المسيّرة للكون والحياة والمخلوقات كلها، وتسير كلها بحسب هذه القوانين وهذا هو المقصود بالكتاب، وبالفعل (كتَب) أي أن الكتاب يتضمن المعلومات والقوانين الخاصة بموضوع معين مثل كتاب الموت الذي يحوي الأسباب والأعراض والنتائج الخ... وتظل وظيفته مستمرة في التخطيط والمتابعة لمخلوقاته".

****" إذا لم يحط بالجزئيات يكون علمه ناقصا، لا داعي للف والدوران، لأنه إذا لم يعرف بمرضي مثلا فكيف يتابع شؤوني ويشفيني إن دعوته، وكيف ينصر عباده، وكيف وكيف؟**

++"يا عزيزي، كل المتدينين في العالم يجسّمون الإله، ويشبّهونه بالبشر، فيقيسون أفعاله على أفعالهم، وصفاته على صفاتهم.

هم لم يعرفوا جوهره أصلا، لأنه ليس كمثله شيء، ومع ذلك يتكافرون بسبب الخوض في صفاته".

****"حسنا وماذا نفعل بصفاته الواردة في القرآن؟".**

++" نمُر عليها مرور الكرام، دون تجسيم ولا تأويل، يعني مثلا (يد الله فوق أيديهم) لا نقول كالسلفية له يد ليست كأيدينا، ولا نقول كالمعتزلة والأشاعرة وسواهم اليد تعني القدرة".

**" كيف يعني مرور الكرام، هذا والعياذ بالله معناه أنها مجرد عبث كلامي وصفّ حكي، حاشاه تعالى حاشاه(كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)".

++"حسنا ولكنه لم يفصلها، وراح المفسرون وعلماء الكلام يفسرون الآيات بحسب وجهات نظرهم، حتى صار القرآن قرائين متعددة بحسب التفاسير المختلفة".

**" التفاسير لا تعني تعدد الكتاب الأصل الذي أنزله الله دستورا للبشرية".

++"ها أنت قلتها، الدستور في أي بلد يجب ألا يحتمل إلا شرحا واحدا، وإلا انقسمت قوميات الشعب وطوائفه وأحزابه بناء على تفسير كل منها للدستور وتحقيقا لمصالحها السياسية والنفعية، وهذا ما حصل فعلا مع القرآن حيث فسره السلفية بغير ما فسره الأشاعرة أو الشيعة أو المذاهب الباطنية ".

**" لأ عندنا نحن الشيعة أن الرسول عليه وعلى آله السلام قد فسر القرآن، ونقل الإئمة ذلك عنه بأحاديث صحيحة".

++"وليش وقفت في السلام عند آله، وما قلت وصحابته أجمعين ؟"

**"لأن الكثير منهم أحدثوا بعد وفاة النبي ما يستحقون عليه اللعنة وليس السلام".

++" أووو، هذا كثير، قم بنا نصلي الظهر والعصر جمعا وقصرا، ونعود لإكمال الحوار".

****"لا يا عيني، صلي لوحدك وأنا لوحدي، صلاتك غير صلاتي".**

استغرب عبدو رفضه، فقهقه رجل بقربهم كان يتابع النقاش.

****

الملاعنة .

أنهى عبدو ومُحاوره صلاة غير مقبولة، كانا شاردين مع موضوع النقاش، يجهزان الأدلة المفحمة.

++"يا عزيزي، لا يجوز اليوم لمسلم أن يلعن مسلما فكيف تلعن صحابة رسول الله الذين آمنوا به ونصروه ونشروا الدعوة، هل كان متسرعا وغير قادر على اختيار صحابة طيبين، مؤتمنين صالحين؟".

****"كانوا صالحين وهو بينهم، ولكنهم انقلبوا على وصيته وسلبوا الإمام علي عليه السلام حقه في الخلافة وحاربوه فاستحقوا اللعنة".**

++" إتق الله يا رجل، قلت لك اللعن حرام ولا يجوز".

****" لأ مش حرام، الله لعن الكافرين والمنافقين والكاذبين والظالمين واليهود والشيطان، فلا تخلو صفحة من صفحات القرآن من لعن أو شتم أو تجهيل أو تفسيق أو سخرية أو تهديد و توعّد بالعذاب دنيا وآخرة وتربّص بهم".**

++"صحيح، ولكن هذا من حق الله فقط".

****"لا النبي أيضا لعن البعض، والحديث عندكم في صحيح مسلم(اللهم إنما أنا بشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة)رواه مسلم.**

حتى أن بعض أهل العلم عدّ ذلك مفخرة لمن دعا عليه الرسول من الصحابة.

كمان النبي لعن من تخلف عن جيش أسامة ولعن عمرو بن العاص، ولعن معاوية وأباه وأخاه".

++" قرأتَ وبحثتَ، فلماذا تخفي ما قاله العلماء حين أجازوا للرسول سب ولعن المستحق، وعدم لعن من لا يستحق، ثم إن حديث (ليس المؤمن بطعان ولا لعان...) يعني كثرة اللعن وتكراره، لأن لعّان صيغة مبالغة، والنبي لم يكن كذلك".

****"هههه يعني ما أحلاه وهو عم يلعن من لا يستحق اللعن!! شو هالترقيعة هاي يا أستاذ؟".**

++"مش ترقيع، بس فعلا للنبي خصوصيات، لا يحق للمسلمين فعلها".

****"اوكي أوكي كل واحد بفسر الخصوصيات ع كيفو. اتركني من الخصوصيات حتى ما تفتح لي موضوع زوجات النبي، لأني راح إلعن عائشة.أوكي؟".**

وقبل أن يجيبه عبدو تدخل الرجل الذي قهقه أمامهم فجأة قبل الصلاة:" بعتذر قاطعتكن، بس كنت متابع نقاشكن المفيد، وأنا يُشرّفني أن أؤكّد أن الرب يسوع قال {{ وأما أنا فأقول لكم :" أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسِنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم }}".

ثم صلّب على صدره.

نسي عبدو نفسه، وهمّ لاشعوريا بالتصليب، لولا أن رأى برهان ربّه.

****" عليك يا سيدنا عيسى السلام، ونحنا كمان بشرّفنا إنو نبينا محمد عليه وعلى آله السلام قال(صِل من قطَعك، وأعطِ من حَرَمك، واعف عمّن ظلمك." قال الشاب الشيعي.**

---"اوكي بس قبل شوي اتفقتو كمذهبين إنو محمد لعن بعض الصحابة".

++" لحظة يا محترم، أنا مسيحي سابق. وقرأت أن المسيح لعن نفسه. ذكر بولس في رسالته إلى غلاطية قوله (المسيح افتدانا من لعنة النّاموس، إذ صار لعنة من أجلنا، لأنّه مكتوب، ملعون كلّ من عُلّق على خشبة)".

---" المعنى هنا ليس أن المسيح ملعون، بل إنه حمل لعنة خطيئة إبينا آدم، وعلق على الصليب ليفتدينا ويخلصنا من هذه الخطيئة".

++" وما ذنب ملايين البشر الذين عاشوا بلا فداء قبل ولادة المسيح؟ ولماذا لم يبق حيا بيننا ما دام إلها، كي يقدم للبشر الحلول لمشاكلهم المستعصية، وما فائدة وجوده في السماء، وهل هو هناك كبشر مثلنا أم روح؟

أسئلة كثيرة تحتاج من النقاش إلى مجلدات، وأنا تركت المسيحية لأن أحدا لم يستطع إقناعي بجواب منطقي".

---" باركك الرب أخي الكريم، أنت لا تريد أن تقتنع مهما سقنا إليك من حجج. حسنا وما الذي وجدته في الإسلام زيادة عما في المسيحية؟".

++"وجدت الإله المنطقي المقبول عقليا، كلّي القدرة الذي ليس كمثله شيء، وهو إله حركي متابع لشؤون مخلوقاته، يدافع عن الذين آمنوا، وليس مستريحا بعد ان خلق الكون كما تقول اليهودية".

---"حسنا وما دام الأمر كذلك فلماذا ترك الدول الإسلامية ترتع في الجهل والتخلف والفقر الشديد والمرض، ولا تساهم في حضارة الأرض اليوم، وتوقفت عن إنتاج الفكر والمعرفة والتقدم العلمي، وهي تتسول المساعدات من دول الغرب المسيحية واللادينية والعلمانية؟".

++"لانها ابتعدت عن شرع الله وأوامره، ولم تطبق تعاليم القرآن وأخلاقه".

---"لا مسيو، لا، لم تبتعد عن الله، فالمسلمون أكثر شعوب الأرض تمسكا بالدين وتطبيقا لشعائره التعبدية، ولكنهم ابتعدوا عن العلم والتكنولوجيا والحرية والديمقراطية، وخضعوا لأنظمة دكتاتورية فاسدة تنهب الثروات وتتآمر على شعوبها لمصلحة الفئة المتسلطة، ومصلحة من يدعمها من الدول العظمى. ثم إن تبريرك غير منطقي، فهل الدول المتحضرة مثل أوروبا واليابان والصين وكوريا قريبون من الله ويطبقون تعاليمه السماوية؟".

++"ها أنت سألت وأجبت، إذن المشكلة ليست في الدين".

---"بل في الدين يا أخي، لأن شخصية الإله عندكم دكتاتورية متسلطة، يكافئ أتباعه فقط في الدنيا والآخرة، ويحتقر كل ما عدا المسلمين ويكفرهم ويلعنهم وسيدخلهم جهنم خالدين فيها أبدا، ودينكم دين جهاد وقتال، ولا يعترف بحرية الآخرين في اعتناق ما يشاؤون، والأمثلة أكثر من أن تحصى قديما وحديثا كما ورد في السيرة النبوية وكتب التاريخ المعتمدة عند جميع المذاهب الإسلامية".

++"في القرآن ١٢٤ آية تتيح للناس حرية الكفر والإيمان، الا يكفي هذا كإثبات يدحض حجتك؟".

---"لا، غير صحيح، فإن آية واحدة نسخت هذه الآيات ال ١٢٤ وهي(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم)".

++"انا لا أعترف بالناسخ والمنسوخ إذ لم يرد في القرآن ولا في الحديث تحديد لها بدقة". أكد عبدو.

---"إذن أنت تؤسس لمذهب جديد، فهل ستقبل باقي المذاهب برأيك؟".

++"الدين ككل فكر وعلم يجب أن يتجدد كي يتماشى مع تطور الحياة، فالتشبث بفكر العصر العباسي أورث

هذه المذاهب والأحزاب والحركات المتكافرة التي لا تشبه جوهر الدين البسيط في شيء".

---"جميل جدا ولكنك ستفشل حتما، لأنه ليس سهلا أن تقبل المؤسسات الدينية بترك تراث الأجداد وحذف الثوابت بحجة التجديد".

++"لا يهمني رفضها، المهم عندي أن أفكاري تصل إلى شريحة كبيرة من التائقين إلى التجديد وإعادة الإسلام إلى جوهره البسيط اليسر كما وصفه النبي عليه السلام".

---" أتمنى لك التوفيق والنجاح في مسعاك الشائك، وعليك الحذر، فأنت تقترب من التابوهات وتمس بسلطة رجال الدين وهم لن يستسلموا لك بسرعة كما تظن".

++"أعلم ذلك طبعا، وسأواصل السير لتنقية الدين مما علق به من شوائب على مدى قرون طويلة".

---"إذن رحمة الله عليك سلفا يا أخ عبدو، وإلى روحك ثواب سورة البقرة هههههه".

****

الحَربوق.

فوجئ عبدو والقسيس بشاب أربعيني لا يعرفانه يحمل إليهما القهوة وبعض البتيفور، سلّم عليهما وجلس.

++"رزقٌ ساقَه الله إلينا".قالها عبدو، وأثنى القس عليه.

--" لا، بل أنا دفعت ثمن الضيافة وليس الله". قالها الشاب بثقة .

---"ولكن الرب خلقك ورزقك المال، إذن هو الذي دفع الثمن، وهو الذي سخرك لتسقينا قهوة قُسمت لنا، في هذه اللحظة". قال القس .

--"ولماذا لم يرزقني المال دون أن أعمل وأجنيه، طالما خلقني دون استشارتي، والخلق كلهم عيال الله؟".

++" "لأنه قال تعالى (وامشو في مناكبها وكلوا من رزقه)

---"حسنا، ولكنني مشيت في مناكبها، حملت الشهادات والخبرة، ولم يسهل لي أمر الحصول على عمل، فكيف أعيش؟ هل أتسول كما يفعل ملايين البشر ومعظمهم من المسلمين الذين سيباهي بهم النبي يوم الحشر؟ وهل يتباهى ملك برؤية شعبه معجونا بالفقر والتشرد والتسول والجهل والتخلف. وما دمت تقول أن الله ساقني وسخرني كي أضيفكما القهوة، فلن تشرباها، وسأضيّف هذين الشابين، بدلا منكما".

--"إذن، الله ساقك لتضييفهما بدلا عنا، وليست مقسومة لنا". رد القس .

---"هههههه ولو دلقت القهوة عليك، ستقول إن الله قرر ذلك. يا عزيزي، الله الذي تقولون إنه خلق هذه المجرات والأرض والمخلوقات بهذه الدقة أرفع وأعظم من متابعة مسرحية القهوة هذه. كنت أجلس وراءكما فسمعت النقاش. أنا كنت مسلما أدرس في كلية دينية بفكر منفتح، وقد عاهدت نفسي أن أنظر إلى الدين من خارج دائرة التقليد الأعمى وقد كشفت بنفسي عيوب الأديان السماوية وتأكدت أنها صناعة بشرية، فقررت ترك الدين و الدراسة، وتعلمت مهنة كهرباء السيارات وبرعت فيها، وهاجرت إلى ألمانيا".

--" وما دليلك أن الأديان صناعة بشرية؟". سأله القس.

---"مئات الأدلة، ولكن الوقت لا يتسع لذكرها جميعا:

1. علم الاجتماع الديني، وبعد دراسة أديان القبائل البدائية المعاصرة في أفريقيا والأمازون واستراليا، وجدوا أنها متشابهة تقريبا وتنطلق من السحر والطوطم والتمائم. كما أثبت علم الآثار وجود حفريات ونقوش ضاربة في القدم عند الفراعنة والسومريين تثبت قيام الحكماء بكتابة العقائد والشرائع وتطبيقها على الناس، ولعل شريعة حمورابي هي النموذج الأكمل، وقد استقت اليهودية هذه الشرائع وزادت عليها ونقصت من مواد قانون العقوبات، ثم أخذت المسيحيةُ اليهوديةَ

وشذبت بعض التعاليم و اعترفت بالعهد القديم في مجمع نيقية، وادعى المسيح انه ابن الله وابتدع فكرة الخلاص والفداء لأنه أيقن أن الرومان سيصلبونه بالتأكيد.

ثم جاء محمد بقرآن هو خليط من الهندوسية و اليهودية والمسيحية والزرادشتية مع إضافة بعض التعديلات، والدليل هو اهتمامه بقصة بني اسرائيل وتفاصيلها كما جاءت في التوارة دون تعديل في سبعين سورة، من المئة وأربع عشرة، بينما المنطق العقلي يفترض أنه ما دام القرآن دستورا إلى يوم القيامة، أن يُبوّب المواضيع بحرفية إله قادر حكيم منظم التفكير، فيكتب قصص الأنبياء مفصلة حسب التسلسل التاريخي لوجودهم، دون تكرار ممل هنا وهناك وهنالك في القرآن، ثم يكتب العقائد الغيبية بدقة ومع الدليل الدامغ، ثم العبادات المفصلة دون أن يترك ذلك للفقهاء يتنازعون عليها، وبعدها القوانين والتشريعات المنظمة لحياة البشر ولو كخطوط عامة، ثم النصائح التربوية السلوكية الخ بينما لم يفعل من ذلك شيئا. ولم يذكر من تعاليم المسيح إلا بعضها الوارد كتناص إيجابي واقتباس حرفي أحيانا، وانصبّ اهتمامه على رفض ألوهية المسيح وبُنوّته لله، وبرفض قصة الصلب، رغم أنه أكد أنه كلمة الله إلى مريم وروح منه، تماما كما جاء في الإنجيل. ويؤكد كلامي ما ذكره فرويد اليهودي في كتابه موسى والتوحيد.

2. الله أرسل الأنبياء ليبلغوا البشر أنه موجود ومتابع لشؤون مخلوقاته لحظة بلحظة، وأيدهم بمعجزات مادية من جنس ما اشتهر قومهم به، ليثبتوا لهم صحة نبوتهم، فآمن البعض ورفض البعض، ولكن قوم محمد حين طلبوا منه معجزات مادية رفض ذلك وقال(سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) وقال لهم أن القرآن أوحي إليه من الله بواسطة جبريل، دون أن يرى القرشيون ذلك ولا مرة. لماذا الواسطة؟ ألم يكن الله قادرا على الكلام بصوت جهوري ويوصل رسالته؟

والآن ونحن نتحدث عن وجود الله، أليس بإمكانه أن ينزل لنا معجزة مادية تفحمني، كأن ينزل علينا من السقف ورقة أو(سي دي) يقول فيه:"هذا هو الدليل على وجودي وسماعي لما تقولون، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، أيها الملحد". ولكنه لن يفعل، وسأنتظر ريثما نشرب القهوة، وإن فعل فسأسجد له أمامكم وأكون خير الداعين إلى دينه".

بعد انتهائهم من شرب القهوة، وقعت ورقة مجعلكة في حضن الملحد، نظروا حولهم فوجدوا الجالسين نائمين. فتح الورقة وقرأ :"هذا هو الدليل على وجودي وسماعي لما تقولون، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، أيها الملحد".

كان الملحد متأكدا أن أحد الجالسين بقربهم هو الذي رماها. دقق في الوجوه، فقهقه أحد الشبان:" بلا ما تسجد، أنا كتبت ما قلتَه أنت حرفيا ورميت الورقة عليك".

أعزائي، قديما على زمن الرسل لم يكن العلم متقدما كما هو اليوم، اليوم يمكن لله أن يتصل بكل ملحد منا عبر الكمبيوتر او الهاتف ويُظهر لنا ذاته فنؤمن. أو فليَظهر لحضرتك أبونا، ويقول : المسيح ليس ابني أو فعلا هو ابني، ويظهر للأستاذ ويقول له: المسيحية هي الحق أو المذهب الإسلامي الفلاني هو الحق فاتبعه. ولكنه لن يفعل".

--"طيب وثالثا شو؟".

ثالثا نكمل الحديث عنه داخل الطائرة فقد فُتح الباب".

++"وما أدراك أنني سأجلس بجانبك؟" سأله عبدو.

--" كم رقم مقعدك؟

++ " ٩ ب "

--" يا إلهي وأنا ٩س يعني بجوارك".

---"هذه إشارة من الرب يا بني، ألا تكفيك؟" قال القسيس.

---"هههههه ضحكت عليكما، أنا رقم مقعدي س٦

ولكنني سأبادل مع صاحب الرقم ٩ س كي نكمل الحديث."

****

حين تجتاز الخطوط الحمر .

ظن عبدو أن تأخره في دخول الطائرة سيمكّنه من الوصول إلى مقعده بسلاسة، لكنه اكتشف أنه مخطئ. كان الممر مزدحما والركاب العرب يتجشمون الصعاب ويتناصحون بالكيفية الأمثل لحشر حقائب ثقيلة يدلعونها(هاند باج)وهي في الحقيقة حقائب سفر ثقيلة، لكنها منمنمة الحجم الخارجي فقط.

وجد رجلا سمينا كثّ اللحية المعشّقة بدهن العنبر الحجازي المركّز، قصير السروال جالسا مكانه، ينظر إلى أرضية المطار:"عفوا عزيزي هذا مكاني قرب النافذة ٩ب ". وأخرَج له كرت الصعود.

**" أقعد اقعد، نفس الشي، شو فرقت يعني؟".

++"فَرقت أنك جلست مكاني، بينما مكانك في الوسط. أوكي!؟".

**"خير الأمور أوسطها يا زلمي، أقعد وخلّصنا".

++"هذا ما حفظتَه من الدين، ولم تحفظ إن الله لا يحب المعتدين. قم من مكاني لو سمحت".

**" معك حق بس أنا لأنني سمين كما ترى فسأكون محشورا في الوسط، إجلس مكاني".

اختصر عبدو الشرّ وجلس ممتعضا منعقد الحاجبين" قُل هذا العذر الواهي منذ البداية، وكنت سأقبله مرغما، ولا داعي للفظاظة".

**" الأخ بيحكي عربي فصحى، إنت عربي مقيم بألمانيا؟".

++"لا، ألماني ألماني، إسمي عبدو، كنت كاثوليكي، وأسلمت على يد أبو شفيق البيروتي الذي كان صديقي، واسم أخته حربية، واسم أختي كارلا، وخالتي أنجيلا، وزوج بنت خالتي إسمو هانس وووو".

**"خلص خلص يا زلمي، شو كفرنا إذا سألناك سؤال؟ أعوذ بالله ما أضيق خُلقك".

لم يجبه عبدو، فساد الصمت لحظةً، قبل أن ينفجر غضب السمين، حين دخل مجموعة من الشبان يعقِدون على رؤوسهم مناديل بألوان قوس قزح، وهم يتقصعون متمايلين في مشيتهم:" عال عال هلق كملت معنا يا عبدو، قوم لوط معنا بنفس الطيارة ".

++"وما دخلك أنت بهم، مجرد ركاب مثل باقي الركاب".

**" وجودهم خطر علينا يا زلمي، بلكي الله سبحانه قرر يقلب فيهن الطيارة رأسا على عقب، منكون إحنا رحنا بين الرجلين وتخوزقنا".

++" يا عزيزي إن قرر الله إهلاكهم فهو قادر على أن يميتهم وهم نائمون في مقاعدهم، ولا داعي لأن يفجر فينا الطائرة فيهلك المؤمن والبريء قبل العاصي".

**" ورد في الحديث أن الله إذا أنزل سطوته بأهل الأرض وفيهم الصالحون، فيهلكون بهلاكهم ثم يُبعثون على نياتهم ".

++"ولم هذا التخريج، والترقيع، الحوادث التاريخية القديمة المشابهة فيها أيضاظلم واضح، وانتقاص من قدرة الله وعلمه وحسن تدبيره. لقد أهلَك أهل الأرض جميعا بالطوفان، كي يُنجي نوحا والقلائل الذين معه، مع أن أهل الأرض لم يكونوا كلهم كفارا، وقد يكون فيهم الكثير ممن لم تصلهم دعوة نبي. وقد شحن من كلٍ زوجين اثنين، فكم كان حجم السفينة لتتسع لجميع أصناف البشر وألوانهم، ولأصناف الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور. هل قدِم الكنغارو وعقيلته من استراليا، والباندا وزوجته من الصين، والدب القطبي وحبيبته من سيبيريا إلى السفينة. وهل صنع لكل صنف قفصا خاصا وطعاما يناسبه ويكفيه؟ قصة بصراحة لا يهضمها العقل".

**"نعم إن الله على كل شيء قدير. يقول للشيء كن فيكون".

++"حسنا فلماذا لم ينقذ أطفال قوم لوط من الهلاك وما ذنبهم؟ ولماذا أهلك قوم صالح جميعا، مع أن المذنبين عشرة أشخاص، الذي عقر الناقة العجائبية، والرهط التسعة؟".

**"لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أنت تشكك بالقرآن والكتب السماوية لأنها ذكرت هذه القصة بشكل مكرر ومؤكد".

++" هي التي تدعو إلى الشك، لأنها تخالف المنطق العقلي والعلمي، علما بأن الله هو واضع قوانين العلم، ولا يجوز أن يخرقها ويخالفها. ثم إن قصة الطوفان ذُكرت قبل التوراة عند السومريين والفرس والهنود وهذا يبعث على الشك في أن تكون الكتب المقدسة بشرية المصدر".

**"يبدو أن أبو شفيق البيروتي لم يشرح لك الدين بشكل مفصل، ولم يحدثك عن معجزات الأنبياء التي تخطت قوانين العلم والفيزياء".

++"قرأت عنها كلها، ولم أقتنع بها، لأن الله كان قادرا على أن يُكلم البشر مباشرة كما كلم موسى تكليما، ولكن الأمر الذي يدعو إلى الاستغراب: لماذا كان موسى وحده عندما استلم الألواح؟ لو استلمها أمام قومه لسجدوا لله وصدقوا ما فيها من تعاليم، وكذلك ما حدث مع محمد ليلة الإسراء والمعراج، كان المنطقي أن تحدث المعجزة نهارا وأمام كفار قريش، فيسجدوا لله ويؤمنوا، وكان يمكن لجبريل أن يرفع صوته الجهوري وهو ينزل القرآن. الوحيد الذي كان مقنعا هو المسيح، أحيى الموتى وشفى الأكمه والأبرص أمام الناس كما ذكر الإنجيل والقرآن، ولكن تظل المشكلة قائمة بالنسبة لنا ولكل الأجيال :كيف نؤمن بروايات معنعنة نُقلت إلينا ؟

**" عال عال، بعد شوي بدك تطلب من الله أن يرسل إلى كل إنسان إشارة عجائبية تثبت وجوده !!!

++"ولم لا؟".

**"لأن الناس كلهم سيصبحون مؤمنين، والله لا يريد ذلك".

++" هذا موضوع جديد يحتاج جلسة مطولة، وأنا أريد الآن أن أنام".

**" قلها بصراحة ودون تلميح أنك ارتددت عن الإسلام".

++" سأواصل البحث حتى أجد الإله المُقنِع وليس المُقنَّع، هل فهمت؟".

**" لا ".

++"ولا أنا هههههه".

****

اللي يجرّب المجرَّب عقله مُخرَّب.

نسائم الحرية ملأت كيان عبدو حين غادر مطار برلين، ضمّخها عبق محبة عائلته والفرح الطاغي.

غمرهم العجب والاستنكار وهو يقص عليهم بعض مواقف رحلة الاستجمام البيروتية.

أدى واجبه الزوجي برتابة مُقلقة، وأسبل جفنيه طامعا أن ينام نوما هنيئا، لولا تلك الرؤيا الأشبه بالكابوس:" أبو قتيبة وأتباعه يركضون خلفه ويقع بين أيديهم".

صحا فزعا، تعوذ بالله ثلاثا، وتفل عن يساره، فأفاقت زوجته تُجدّف وتلعن:" هذه هديتك لي من بيروت؟".

احتظنها معتذرا، فصفحت دموعها عنه.

صباحا، أنجز بعض المعاملات الرسمية المعتادة دون أي روتين، وتوجه نحو المسجد القريب.عانق رفاقه، وجلس يختصر لهم فصول معاناة الرحلة، قبل أن يحين موعد صلاة الظهر.

لفت نظره شاب مندلق الكرش قصير السروال، يُسوي كرسي المحراب استعدادا لتلقين درس ديني.

هو لا يستسيغ مفاجآت الأفلام الهندية المفتعلة، فهل الشيخ هو أبو قتيبة البيروتي بشحمه ولحمه؟

دقق في وجهه مليا وشهق، لم يُبد الشيخ أية حركة توحي بأنه يعرف عبدو من قبل، فحمد الله وقام يستند إلى العمود متجنبا النظر إليه.

هل هو هو أم يخلق الله من الشبه أربعين، سؤال ظل يضج في رأسه مسترجعا فصول المعركة الدموية التي حدثت بينه وبين أبي قتيبة في بيروت ذات سهرة نقاش عربية، كُرسِيّة العتاد .

كان الموضوع (المنهج المكين لأسلمة برلين) فقهقه عبدو مُخفيا وجهه بكفيه، ثم توجه للشيخ رافعا صوته "مولانا، أمس فقط وصلتُ من بيروت، عليكم أن تأسلموا بلاد المسلمين، وتطبقوا الإسلام فيها قبل أن تفكروا في أسلمة برلين وأوروبا، فدولنا تُطبق مفاهيم الإسلام كلها من حرية وديمقراطية والتزام بالقانون العادل والنظام والنظافة والمساواة في الحقوق والواجبات، ونُعتبر مطمح شعوب العالم الإسلامي. نحن نفصل الدين عن السياسة نهائيا، وراضون مطمئنون تماما فلماذا تهربون من بلاد الظلم والقهر التي تدعي أنها مسلمة، وترغبون في تطبيق تجربتكم الفاشلة عندنا ؟

****"عزيزي أنت مُضلّل بفتح اللام وكسرها على ما يبدو، فهل ما ذكرته من مزاياكم هو الإسلام؟ فأين العقيدة الصحيحة؟ وأخرج حرف الصاد بصفير لائق منضبط حسب قواعد التجويد؟**

++" فلتحفاظ كل فئة على عقيدتها كما تشاء، داخل دور العبادة، والجمعيات الدينية، وسأبذل قصارى جهدي و أعمل المستحيل كي يتحقق ذلك، بل وسأقدم اليوم طلبا مُلحا إلى وزارة الداخلية كي تلغي بث القنوات الدينية كافة وتمنع بث الأذان والدروس عبر مكبرات الصوت".

****" اي أي روح بلّط البحر، إيدك وما تعطيك، كان غيرك أشطر ".**

خرج عبدو غاضبا، فاستوقفه صديقه:" ما بدك تصلي عبدو؟".

++" هههه خلي الصلاة لكم. مثل هذا لا تصح الصلاة وراءه. بيتي مسجدي .

استعد رفاقه للخروج معه، فانفعل الشيخ:" قسما عظما أنك مرتد زنديق مفارق للجماعة، وما بكون أبو القعقاع أذا ما خليتك عبرة لمن يعتبر".

فاستداروا جميعا ووجهوا إليه تحية الوداع بأصابعهم الوسطى.

****

إنهم هناك.

ظل تهديد أبي القعقاع يرن في قلب عبدو.

راح يحدث نفسه :" انا في برلين بين عائلتي وفي ظل دولة القانون التي تحميني، ولكنها أعجز من أن توظف (بودي غارد) لكل مواطن، دولة تعاقب المجرم بعد تنفيذ الجريمة، ولكن ماذا يكون المغدور قد استفاد؟!

موقن أنا بأن أمثال من هددني يلجأون إلى أسهل السبل لنشر فكرهم، بإزالة العوائق، فإذا الطريق آمن والوصول سريـع .

لماذا يرهقون عقولهم بتثقيف مئات الدعاة بالحكمة والموعظة الحسنة، والاعتراف بالآخَر، وإضاعة وقتهم الثمين في إقناعه؟ هم أذكياء يعلمون علم اليقين، مستندين إلى وقائع التاريـخ البشري بأن قطع الرؤوس أسهل وسيلة لإقامة دولة العدل الإلهية، ثم يدخل الناس في دين الله أفواجا، الكبار يموتون والصغار ينسون، بل لا يذكرون أصلا".

توجّه مباشرة إلى دائرة النفوس في وزارة الداخلية وطلب شطب اسم عبدو من بطاقة هويته والاكتفاء بالإسم عند الولادة (هارالد).

في البيت شرح لزوجته ما يتهدده من خطر، فقالت:"الحل بسيط، أنا وانت متقاعدان، ويمكننا اختيار مكان آمن نشعر فيه بالسلام والطمأنينة داخل

ألمانيا أو حتى في أي دولة من دول الاتحاد الأوروبي. فلنذهب للعيش في مسقط رأسنا في شونغاو قرب ميونيخ".

++"هههههه تنتشر الجماعات الإسلامية هناك بشكل أوسع".

****" وهل أنت مجبر على الجهر بأفكارك، تتنطط من مسجد إلى مسجد؟ حسنا سنسكن في بلدتي الوادعة الجميلة قرب بحيرتها فورجينسي الساحرة، وتكتب ما شئت وتنشره في كتاب".**

++" هههه العاقبة ستكون أشنع، ولكن معك حق، لم يبقَ من العمر أكثر مما مضى، ع رأي صديقي السابق".

رحب أهل زوجته بالفكرة، وشددوا على ضرورة تصفية شؤونهم في برلين بأقصى سرعة والمجيء إلى شونغاو، اليوم قبل الغد.

في بلاد القانون والنظام والانضباط لا يحتاج تغيير مكان إقامتك إلى أكثر من يومين، فهل ستكون المدة كافية لتخليص الحمَل الوديع من براثن الذئب؟

انتابته الوساوس فطلب من زوجته تجهيز الحقائب، وخرج لتوكيل صديقه بمتابعة أمر بيع بيته بما حوى.

وقبل حلول الظلام كانت بحيرة فورجينسي تبتسم لرجل يتأبط ذراع حماته الثرثارة :" سابقا قلت لكَ، الأديان كلها نسخة طبق الأصل، لكنك لم تسمع كلامي.

إسمع هذه النصيحة. مثل شعبي سمعت جارتي المصرية عطيات تقوله".

++"شووووو .. جارتك مصرية ؟!".

****" هههه لا تخف ولا تقلق زوجها سكير وعلاقته متوترة مع الرب، لكنه في قمة الأخلاق".**

++"ماما، وما يدريني أنه لن يتوب، ويطلق لحيته ويقصر سرواله، ويسمع كلمتين في المسجد ثم يحمل السلاح لفرض الدين الحق، ويحمل اسم أبو قتيبة؟".

"عندها لكل حادث حديث أو مثلما قالت جارتنا عطيات: لما ييجي الصبي نصلي ع النبي".**

++"والله يا ماما إنتي متأثرة كتير بجارتك عطيات ويا خوف قلبي من اللي جاي هههه".

****

الميزان

في جلسة شاعرية حول بحيرة (فورجينسي) أحسّ هارالد /عبدو بالطمأنينة والفرح يدغدغ خلجات نفسه، طبيعة خلابة، طيور تزقزق، سرب من البط يغمس رأسه في الماء ويُخرجه ناعما بكائن مائي صغير في منقاره.

جلسة تأملية حالمة قطعَتها حماته الثرثارة:" المعرفة نقمة، كَوني مدرسة فلسفة سابقة، أؤكد نظريتي هذه".

هزت ابنتها رأسها بالنفي:"بل نعمة يا ماما، ولولاها لكنتِ الآن تحملين الجرة على رأسك من النبع حتى كوخك الريفي البارد، ولما تعرفتِ على عطيات التي لحست مخك بجهلها المقيت".

ترك هارالد نقاشهما المحتدم وشرد يتذكر نقاش الكراسي المخلعة في بيروت، فلم يجد كبير فرق بينهما عدا استخدام الكراسي لإنهاء النقاش.

ثم نطق:" في داخلي شعور بالأسى لما لاقيته في بيروت بسبب معرفتي التي جهرت بها في المكان الخطأ، تخالطه سعادة غامرة بما اختزنته من ثقافة أزعم بأنها جيدة، انصهرت في بوتقتها الأديان السماوية والوضعية والمانشيتات العريضة لجوهر الفلسفات الشرقية والغربية، إذن أنتِ على حق." وطبطب على كتف زوجته مع رفع الإبهام، فانمغصت حماته.

ناداه كهل جالس في المقعد المجاور بإشارة من كفّه، فذهب إليه.

****" سمعتُ الحديث كله، أترى هذه البطات؟ هي أسعد منك ومني، رغم أنها لا تملك من المعرفة الغريزية إلا ما جادت به الطبيعة عليها، تقوم بواجبها في احتضان صغارها وإطعامهم، أنظر كيف!! ثم يأتي أوان رحيلها فتمضي بصمت. بينما أنت يا ابن الإنسان أفنيت عمرك تحصل المعرفة الفكرية النظرية، وحين أوهمت نفسك بأنك امتلكت الحقيقة المطلقة، انطلقتَ تبشّر بها، فاصطدمتَ بمبشرين يخالفون عقيدتك، هم أيضا توهموا أنهم امتلكوا الحقيقة الوحيدة الحقة، وراح الجميع يكفر الجميع، فحفروا الخنادق وحملوا البنادق. وجرت الدماء سيولا جارفة.**

عزيزي، إجعل عقيدتك لنفسك، وتدينك تدينا فرديا لا جماعيا، وخلّص ذاتك من الشرور وسيء الأخلاق و السلوك، اهتم بذاتك عش الحياة بفرح، اخدم عائلتك والمجتمع باقصى ما تستطيع تنم مرتاحا، وترحل مبتسما".

++" هههههه. ها أنت يا عزيزي تبشّرني بقناعتك الراسخة، وتدعوني للالتزام بتجربتك الواثقة، فما الفرق بينك وبين أبي قتيبة، ورجال الدين، وبين الشيوعي الذين يعتبرون تبليغ معتقداتهم أهم الواجبات؟".

****" الفرق بسيط وواضح، أنظر إلى النتائج، ألم يقل المسيح(من ثمارهم تعرفونهم)؟ ماذا فعلت الدول**

الشيوعية والاشتراكية والأحزاب الدينية، وما الذي أورثته للبشرية غير الأشلاء والدماء والحقد والكراهية والاستعلاء على المخالف ونبذه بالسيف والبارود؟".

سرت قشعريرة لذيذة في جسد هارالد من كلام العجوز، فودعه بعد أن تعارفا، على أمل تكرر اللقاء.

خلخلت كلمات العجوز عقل هارالد المحشو بالأفكار المتناقضة، لكنه اندهش:" والله لكأنني اسمع بهذه الآية لأول مرة(من ثمارهم تعرفونهم) يا إلهي، كيف لم أنتبه لها، جملة تصلح ميزانا دقيقا لفرز الأديان والنظريات وتصنيفها اعتمادا على النتائج.

لقد قرأ جملة (الأمور بخواتيمها) ولكنه مر عليها مرور الكرام، فالفكر الراسخ النازل من السماء يدحض كل ما عداه، ويعمي عيون العقل .

راح يسجل على الورقة الأديان السماوية والأرضية مقرونة بنتائجها الحالية في واقع البشر،ثم أخذ يشطب السلبي منها فلم يبق على الورقة دين لم ينل إشارة .x

ثم تنَهد .

****

الهدم والبناء.

حضن هارالد رأسه بين كفيه:" ها أنا شطبت من عمري نصف قرن أو يزيد، باحثا عن الدين الحق، فما النتيجة؟ يفاجئني عجوز مغمور يُطعم بط البحيرة، يمحو الرحلة بجملة واحدة (من ثمارهم تعرفونهم)، أسترجِع تفاصيل الرحلة ونتائجها وينهدم كل شيء، كل شيء".

ما أصعب البناء وما أسهل الهدم، قالها عبدو بصوت مسموع، فاستغربت حماته:" لقد أخطأتَ منذ البداية،كان عليك ألا تخرج من حفرة كي تقع في أخرى، لم تخطط لرحلة البحث، ولو فكرت آنذاك مليا لاهتديت إلى ما اهتدى العجوز إليه. وإلى ما اهتديت أنا إليه".

++"وإلامَ اهتديتِ ماما؟".

****"هههه تريد التقليد من جديد؟ جهز الزاد لرحلة جديدة، قد تكون قصيرة جدا إذا أتقنت التخطيط وإلا فستعود منها خالي الجيوب، وقد ترحل من الحياة قبل الوصول إلى الحقيقة المقنعة. حسنا، سأساعدك بجملة كانت معيار بحثي في الفكر والفلسفة والأديان، قالها ابن رشد (إن الله لا يمكن أن يهبنا عقولا، ويعطينا شرائع مخالفة لها)".**

قُرع الباب بشدة، فقالت حماته:" هذه صديقتي المصرية عطيات".

ابتسامتها الودود سبقت سلامها، فانشرح الحاضرون، وزاد انشراحهم حين مدت يدها لمصافحة هارالد فصافحها مع انحناءة رأس خفيفة.

" كنا نتحدث في الدين قبل دخولك فهل نكمل الحديث أم ترغبين في فتح موضوع آخر؟" قالت حماته.**

"ع راحتكم، مع أني استغرب أن يحتاج الدين إلى كل هذه النقاشات والمقارعات والدراسات والأبحاث والمجلدات القديمة والحديثة، فالدين يسر ولكن وضعه الحالي يعاكس ذلك تماما".

++"وما هو الدين برأيك؟". سألها هارالد .

"لو وجهتَ هذا السؤال إلى المليار ونصف من المسلمين لأجابوك بصدق" نؤمن بوجود الله ووحدانيته وصفاته الكمالية إيمانا غيبيا، ونؤمن برسوله وأركان الإيمان والإسلام، ونصلي ونصوم ونحج ونتصدق ونعمل الصالحات حسب قوانين الأخلاق ونقطة ع السطر".

++"وما هو تصورك للإله؟".

"لم يطلب منا أن نتصوره، بل العكس صحيح، منهيون نحن عن الخوض في ذاته، وعلينا التفكر في مخلوقاته.وإقامة الخلافة في الأرض بالعلم والكشف والاختراع وترك الخلق للخالق".

++"اللهم ارزقنا إيمان عطيات". قالها هارالد فضحك الجميع.

."الأمر ليس بهذه البساطة، فواقع الفرق والأحزاب وحركات الإسلام السياسي يناقض ذلك، فهم يحملون هَمّ البشرية ويجزمون أن واجبهم منع العباد من عبادة العباد وتعبيدهم لرب العباد، وأسلمة دول العالم، هذا ما قرأته في بعض كتب الإخوان المسلمين". قالت الحماة.

فقهقهت عطيات:" وماذا لو أعلنت الأديان الأخرى الجهاد في سبيل الله وحملت السيف لتحرير البشرية بناء على دينها هي، كيف يكون المشهد؟ يجب أن يكون التدين علاقة فردية عمودية بين الإنسان وربه، ويكون القانون العادل فوق الجميع، ينظم العلاقة الأفقية بين الناس. يجب حظر الأحزاب الدينية والفضائيات الدينية، ومنع تدريس الدين في المدارس والكليات، ومنع رجال الدين من الترشح للانتخابات، ومن التدخل في السياسة، ومنع بث خطب ودروس المساجد عبر الميكروفون. هكذا يستقيم المجتمع والدين معا".

++"هههههه، أحسنت عطيات. أنا ذكرت تساؤلك هذا من قبل. لكنها احلام وردية جدا يا عطيات، فهل تتوقعين حدوث هذا قريبا؟".

" لا لا أبدا، فرجال الدين يزدادون شراسة ضد المخالفين، ويزدادون تمسكا بالموروث كله دون اي رغبة في تجديد الخطاب الديني".

++"يعني أيه الكلام ده يا عطيات؟". قالها هارالد ضاحكا.

"يعني مفيش فايدة زي ما قال سعد زغلول، هاتي القهوة يا حبيبتي وخلينا في حالنا، للدين رب يحميه".

++"هههههه أنا شايف العكس للدين بنادق تحميه".

****

الخيط الأول من الفجر.

على الشرفة جلس هارالد، مرتحلا مع إيمان عطيات، تلك المرأة البسيطة التي لم تسلخ من عمرها نصف قرن من البحث في الأديان مثله، لكنها صعقته بجملة واثقة(الله لم يطلب منا أن نتفكر في ذاته بل في مخلوقاته).

لقد قرأ هذا في جملة ما قرأ، ولكنه أعرض عن الفكرة متسلحا بخلفية ثقافية باحثة، لا ترضى بالإيمان السلبي التواكلي التقليدي .

"وماذا بعد؟ ها أنا عملت (ديليت) لأفكاري السابقة عن الأديان السماوية والأرضية، وعاد عقلي قطنة بيضاء كطفل يتعرف إلى الوجود من جديد."

فتح الفيسبوك وراح يتصفح المنشورات فاستوقفه بيت شعر منسوب للإمام علي بن أبي طالب

وتحسب أنك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر.

هو لا يهمه إن كان الإمام هو القائل أم سواه، فقد اختلط الحابل بالنابل، حين راحت المذاهب الإسلامية تمجد رموزها وتنسب إليهم الحِكَم والمقولات المعرفية اللافتة حتى وإن لم يقولوها. لقد قرأ هذا البيت مرارا من قبل ولكنه لم يتدبر فيه.

حمل هاتفه وانطلق نحو البحيرة قاصدا العجوز المثقف، وجده جالسا يتصفح كتابا، وبقربه كلبه الجميل.

ابتسم العجوز مبادرا إياه:"كنت على يقين بأنك ستأتي. هل نظفت عقلك".

++ هزّ هارالد رأسه باستغراب شديد:"كيف عرفت؟".

****" انفراج قسماتك الفرِحة يوحي بذلك. آن لك أن ترتاح، ولن تفعل إلا إذا أوجزت لي رحلة بحثك التي خرجت منها بالقلق والاضطراب والخوف".**

راح عبدو يشرح والعجوز يبتسم:" أضعت عمرك سدى، الآن وقد كنست كل ما ذكرت، فلا تحتفظ بذاكرتك إلا بالدرر، هي ليست معقدة ولا ضخمة، سجل معي :

قبل البحث عن الله والدين الحق كان عليك أن تعرف نفسك، ثم ترضى بها كيفما كانت. كل المتحذلقين يبحثون عن علة الوجود وكيف نشأ، وما الغاية والهدف، كلهم دون استثناء أخطأوا حين راحوا يبحثون عن الله خارج الكون، مرة في السماء، وأخرى مستويا على العرش كسلطان دكتاتور. لم يقنعك أي من آلهة الأديان أتدري لماذا؟ لأنه يخلقك مُجبرا غير مخيّر بقرار منه، ودون أستشارتك، لأبوين من دين معين، ثم يتوعدك بالعقاب لأنك لم تختر الدين الحق. لقد قلت لي إن الإله الواحد لا يُنزل إلا دينا واحدا، وبما أن الأديان تتنافر وتتكافر فكلها خاطئة، ولكنك لم تعثر على الدين

الواحد الصحيح، ولن يعثر عليه أي متدين ينطلق في البحث متسلحا بعقائد وتشريعات نشأ عليها وأورثته الرعب مما بعد الموت. فيروح يقيس النظريات والمعتقدات على ثوابت عقيدته ويرفضها، حتى يتوصّل في الختام إلى أن معتقد الأجداد الذي ورثه هو الحق المبين.

هارالد، أنت لست كذلك، لقد هَدمت، وهذه هي الخطوة الأولى نحو البناء الراسخ الجميل.

ماذا قدمت للمجتمع طيلة حياتك؟".

++"كنت محاميا شريفا، خدمت مَن وكّلني بضمير ودون طمع".

****"هذا عمل من أجل المال، نلت أجرك عليه وانتهى الأمر وأنت تتقاضى عليه راتب التقاعد. كل البشر يفعلون ذلك ويتنافسون لطلب المزيد من المال، فينتشر الطمع والحسد و الظلم والأذى والغش والكذب والجرائم. ماذا في جعبتك غير هذا؟".**

++" أنشأت عائلة طيبة السلوك حسنة السمعة".

****" كل المتزوجين يدعون هذا الادعاء، فمن أين يأتي هذا الشر كله؟ قصدت بسؤالي المجتمع وليس عائلتك."**

++"خاصمت صديقي أبو شفيق حين تخلى عني في بيروت، وسأتصل به مسامحا إياه، معيدا المياه إلى مجاريها. ووعدت أصدقاء المقهى البيروتي بمساعدتهم

وسأفعل بقدر استطاعتي وبحسب القانون الألماني الخاص باللجوء والهجرة. وسأتصل برفاقي نزلاء غرفة التوقيف للاطمئنان عنهم ومحاولة تقديم العون لهم.

**** أحسنت، هذا عمل إنساني صالح، لكنه وقتي، محدود، منقطع، قم معي في جولة قصيرة جدا".**

++"إلى أين؟".

****"كي أريك الله".**

****

الحقيقة في الحديقة .

فتح العجوز كيس الخبز، وتوقف يتأمل سرب البط، ثم أغلق الكيس ومشى.

++" لماذا لم تطعم البطات مع أنك أحضرت الخبز لها؟سأله هارالد.

****"ههه لن أقول لك(لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا). بل اسأل ما شئت، فأنا يسعدني أن أُسأل عما أفعل. حين تجد البط يتمشى فوق الماء ويلعب، دون أن يغمس رأسه في الماء، فاعلم أنه قد شبع. غدًا أطعمها".**

طفق العجوز يمشى الهوينا في الطريق، ينظر إلى موطئ قدمه، يحاذر أن يدوس نملة شاردة، يتوقف هنيهة أمام رتل من النمل يحمل مؤونة الشتاء، يروح يفتت الخبز وينثره بقرب الرتل، فتدب الحركة النشيطة.ويحمل النمل الخيرات. وقبل مغادرة البحيرة نثر قطع الخبز للعصافير ولمن يرغب من دواب الأرض.

عند باب إحدى المؤسسات توقف العجوز، فقرأ هارالد:(دار آبائنا الكرام).

****"تفضل يا هارالد". قالها العجوز، وهو يتقدم مسلّما على النزلاء الذين كانوا يبتسمون له قبل العناق، ثم انعطف نحو المطبخ وانهمك مع مجموعة من الراهبات والرهبان يحضر وجبات العشاء، ثم يحملها**

مبتسما ممازحا كل نزيل باسمه وبجملةٍ تُضحكه من الأعماق .

لم يقف هارالد مكتوف اليدين، لاحظ عجوزا طاعنا مرتجف اليدين، فجلس بقربه يطعمه بيده ويتلقى منه ابتسامة شكر صامتة تسبقها دمعة.

****" الآن عمت مساء هارالد، سأعود إلى منزلي، هل تسعدني بشرب فنجان قهوة معي؟".**

++" بكل سرور".

فوجئ ببيت صيفي أشبه بكوخ تحضنه شجرة سرو ضخمة، تنطلق منها سيمفونية عصافير الغروب، وحديقة زهور مرتبة ترتيبا هندسيا فائق الجمال، قرأ في حوض منها حروفا مكتوبة بالزهور .sandraفدمعت عينه.

انبهر هارالد بترتيب غرفة الجلوس التي بدت كحديقة ضمن حديقة. نظافة وعبق عطور ناعمة .

كرسي هزاز بجانبه طاولة صغيرة يعتليها دفتر صغير كُتب على غلافه(رأيتُ الله).

ناداه العجوز من المطبخ:" قَطعا قرأت عنوان الدفتر، كنت سأهديك إياه، ولكنك وفرت عليّ تعب حمله .

ملايين البشر يولدون، يتعلمون، يعملون، يتزوجون، ينجبون، ويكررون ذواتهم في أبنائهم. قلة هم الذين يضعون بصماتهم على جدار الزمن، كتابا يفيد البشرية،

كشفا، اختراعا، صدقة جارية، ولدا صالحا يُبدع، فيخفف آلام الإنسان".

جلسا يحتسيان القهوة فسمع هارالد همهمات وغمغمات غير واضحة الحروف تنبعث من غرفة مجاورة فتساءلت عيناه.

"هذا صوت هانس و كارولين، قم بنا نسلم عليهما".

تفاجأ هارالد بهما ممددين على سرير خاص، يبتسمان لهما. قبّل وجنتيهما فاتسعت ابتسامتهما.

" لم أُنجب. هما طفلان يتيمان مصابان بالشلل الرباعي، تبنيتهما وزوجتي ساندرا الراحلة، هما الآن يذكراني بموعد تغيير الحفاظات".

خرج هارالد دامع العينين، حمل المخطوط وودع العجوز.

خلا بنفسه، فتح الصفحة الأولى وقرأ:

[[صديقي الجديد هارالد :

لم نكن بحاجة إلى كثير وقت كي نتحابب كصديقين، هكذا بلمح البصر جمعَتنا الإنسانية، أنت لم تعرف ديانتي، وأنا غير متأكد من ديانتك الحالية، لكن دمعتك في غرفة هانس وكارولين ترجمَت ما توصلتَ إليه من معرفة. أكمل قراءة الإهداء، ثم اقرأ ما دونتُه في هذا المخطوط، كلمة كلمة بل حرفا حرفا.

لست أقصد استمالتك إلى ما توصلتُ إليه، ولا التبشير به. إن وجدته صالحا للنشر فالأمر لك. أنا شارفت على التسعين، أوصيك بهانس وكارولين.

ستجد في هذا المخطوط فصولا تختصر تجارب الواصلين إلى الله.

إليك زبدة ما توصلت إليه بعد بحث مضنٍ، ولا أُلزِم به أحدا، ولا يحق لأي مُنظّر أن يفرض نظريته على أحد بالقوة . مهما كان مُعتدا بأنها الحق الكامل الوحيد المُخلّص للبشرية . لأن ما يُفرَض بالقوة، بالقوة يُرفَض.

الأنبياء جميعا قالوا بأن الله الذي أرسلهم شدّد على حرية الاعتقاد بل والكفر (فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر). فلماذا يتكافر أصحاب الديانات؟ أليس عيبا محزنا أن يكون الدين هادم اللذات ومفرّق الجماعات؟ أيكون دينا هذا الذي يدعو إلى نبذ الآخرين والحقد عليهم، وتكفيرهم، وإخراجهم من رحمة الله، وزجهم في جهنم؟ ماذا تركوا لله من فِعل إذًا ؟

لماذا يخبّئ الله ذاتَه؟ أنا عندما سألني صبي ذكي:" كيف وُجدتُ؟ " لم أقل له أنه جاء إلى الدنيا بقدرة غيبية، بل هو ثمرة زواج أبيه بأمه. وحين سألني:" ومن أوجد أمي وأبي ومَن قَبلهم من مليارات البشر؟ " قلت:" العلم أثبت أن نظرية التطور حتى الآن، هي الوحيدة المقنعة للإجابة عن سؤال نشوء البشر وتطورهم.

هناك قوة خارقة أوجدت كل هذا، ولكنها بالتأكيد ليست إله الأديان السماوية، الذي خلق ورزق وارتاح،

تاركا البشر يغرقون في الجهل والتخلف والمرض والحروب والظلم والأذى. فليتدخل علنا ولو لمرة واحدة وسيؤمن الناس جميعا. لقد شبّهوه بالبشر كديكتاتور متفرج، يجلس على عرش تحمله الملائكة. لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أكدوا جميعا أنه إله واحد، فهل يكون واحدا من يُنزل أديانا مختلفة تتنافر وتتكافر وتتحاور بالسيف والبارود؟

إله يُدخلك مدرسة الحياة غصبا عنك، ثم يُخضعك للإمتحان الممتد الطويل طوال عمرك في الحياة، دون رغبة منك، فإذا نجحتَ بحسب المنهج الذي حدده لك مذهب والديك الديني، كافأك بعد الموت بالجنة، وإن رسبتَ قذف بك في نار جهنم إلى أبد الآبدين. فماذا عن أتباع مئات الأديان المخالفة لدينك؟ أيكون هذا الإله عادلا؟ قاضي الدنيا يُصدر الحكم على المجرم بعقاب على قدر الجريمة، دون حقد على المجرم ودون تشفٍ منه وانتقام، فكيف يرضى الإله الرحيم بضد هذا؟

إن كان هناك إله واحد غيبي مختفٍ خارج حدود هذا الكون فهو حر في اختبائه، ولكن لا يحق له أن يحاسبني إن لم أؤمن بوجوده ووحدانيته، كما لا يحق له أن يطلب مني أن أحمده وأشكره على منحي الحياة كهدية مفخخة معجونة بالبلاء والجوع والمرض والظلم والحروب، أنا حر في الانتحار والتخلص من هذه الهدية إذن. والأعجب أن يطلب مني التسبيح بحمده بواسطة العبادات الشعائرية وبالطقوس، لقاء

الهدايا والنعم التي لم أطلبها ولم أشتهها، فإن لم أفعل عاقبني إلى الأبد. أيّ هدية هذه وأية نِعم؟!!

نحن في وجودنا الدنيوي أمام صانع ومنتَج، وبما أن المنتَج مأساوي لما يتضمنه من معاناة وألم وموت، فالمنطق يقضي بأن نُحاسِب نحن الصانعَ، لا أن يقوم هو بمحاسبة المُنتَج.

أقبَلُ أن يكافئني على عملي الصالح ومعاملتي الطيبة، وأن يعاقبني بقدر إخلالي بهما في الدنيا، وسأفرح إذا كان سينتقم من الظالم والمؤذي والمسيء، وأن يعيد للمظلوم حقه في الدنيا، لا أن يُملي للظالم ويمده في طغيانه، متربصا به، حتى إذا أخذه لم يُفلته، هههههه فليمسك به فورا، من لحظة ارتكابه الظلم، ويرينا كيف يعاقبه أمام أعيننا، لا أن يؤخره ليوم تشخص فيه الأبصار يوم الدينونة والحساب.

العلم يتقدم بخطى ثابتة كي يكتشف لنا كيف بدأ الخلق، وهذا ما نص عليه القرآن (قل انظروا كيف بدأ الخلق ..) وحتى يصل العلم إلى مبتغاه، فلا يمكن لأحد أن يجزم بحقيقة جوهر هذه القوة الفاعلة دون سواها، ولا أن يخلع عليها من الصفات ما يحلو له. ولا أن يتوعد البشر بالعقاب الأبدي إن لم يؤمنوا بها.

أليس كذلك هارالد ؟

وبما أنني على حافة القبر فليس أمامي إلا الإيمان بإله رحيم ودود عادل محايد لا يُفضّل أحدا من خلقه على أحد، ولا يُعاقِب قبل أن يُحاسِب، لا يحقد ولا يكمن

لأحد بالمرصاد، إله نظيف اللسان لا يسب ولا يشتم ولا يستهزئ بأحد ممن خلق، ولا يهدد ولا يتوعد، لأنه الخير كله والرحمة كلها والحب الخالص الخالص يا هارالد. إله قال إنه معكم حيثما كنتم. وسنرجع إليه بعد الموت، وهذا معنى (إنا لله وإنا إليه راجعون.) وليس معناها أن نذهب إلى الجنة ولا إلى النار، إذ يكفي المؤمن الصالح أن يعود إلى الله ويصبح ويمسي معه، ويكفي العاصي الطالح أن يُحرَم من كل ذلك ويبقى في العدم ترابا تدوسه الديدان. وهكذا فلا داعي لأن تدعوه لتلبية حاجة مُلحّة لك، لأنه رفيقك وأنت روح منه. ولا داعي لأن تَذكُره أوّلا كي يذكرك، ولا أن تشكره كي يُطعمك وييسر أمورك.

إلهي الذي عانقتُه وأحببته قريب، بل أقرب إلي من حبل أفكاري، هو الذي يجري في عروقي، لا الشيطان. لو نطق لحادَث كل شعب بِلغته، ولأظهر نفسه، دون واسطة، لو تكلم لقال ما يلي، مطعَّما بتصوّر سبينوزا:

(((حبيبي أيها الإنسان:

مذ وُجِدتَ على الأرض وأنت تبحث عني في السماء، وخلف المجرات، مرة جعلتني متعددا بتعدد الظواهر الطبيعية، ومرة جعلتني مستويا على العرش كالسلاطين، مرة تجعل لي ولدا، ومرة توظف ملائكة لمساعدتي، على هيئة إناث ذوات أجنحة. تجعلهم عاملين دؤوبين مرة، ومرارا تجعلهم يُسَبّحون بحمدي ليلا ونهارا، لا يفترون. القوي القادر لا يحتاج إلى الضعيف العاجز كي يساعده أو يدافع عنه. فكيف

يخلق ضده الشرير، ويتركه حيا حرا طليقا إلى يوم القيامة،كي يغوي البشر، ثم يعاقبهم الله؟

الإله الذي أخبروك عنه عجيب أمره، يخلق أباك من طين، ويخلق أمك من ضلعه. أليس قادرا على أن يخلقها من الطين أيضا، ألا يمكنه جبْل خلطة طين تكفي لخلق البشر جميعا، بكافة ألوانهم وأجناسهم؟

توقف عن الصلاة من أجلي و عن ضرب صدرك. أريدك ان تخرج إلى العالم و أن تتمتع بالحياة.

أريدك أن تتمتع و تغني و تعمل.

أريدك ان تستمتع بكل ما قمتُ به من أجلك.

توقف عن الذهاب الى تلك المعابد المظلمة والباردة، التي بنيتَها و قلتَ عنها إنها مسكني، ورحت تُنظّر لمذهبك، وتُكفّر مَن خالفه!

مسكني في الجبال والأشجار والوديان والبحيرات والأنهار.

هناك حيث أعيش معكم و حيث أعبّر عن حبي لكم.

لستُ بحاجة إلى بيوت مزخرفة أشبه بالقصور المنيفة. الناس بحاجة إلى المشافي والمدارس وحدائق الأطفال، ودور العجزة والأيتام، بحاجة إلى المصانع لتشغيل العاطلين عن العمل أكثر من حاجتهم إلى بيوتي التي يدعونني فيها ليل نهار كي أرزقهم.

توقّف عن اتهامي بالمسؤولية عن فقرك، وعن رزقك المحدود، وأجلك الموعود.

لم أقل لك أبدا إن هناك شيئا ما شريرا بداخلك.

كما لم يسبق لي أن أرسلت نبيا كواسطة بيني وبينك، فأنا لست بحاجة إلى وسيط كي ينقل إليك تعاليمي، وأن يَتّهِم أباك الأول بأنه ارتكب الخطيئة فطردتُه من الجنة. مسرحية لا يصدقها طفل صغير، والمضحك أكثر أن إبليس قادر على إغرائك وإغوائك كي تكفر بدون واسطة، بينما أعجز أنا عن هدايتك إلا بواسطة.

لا توبّخني على كل ما قيل لك أن تؤمن به.

توقف عن ترديد القراءات المقدسة التي لا علاقة لي بها ، فإذا لم تتمكن من قراءتي أثناء الفجر، في منظر طبيعي، في فراشة أو نحلة أو نملة، في زهرة، في شجرة، في جدول رقراق، في نظرة صديق، في زوجتك، في نظرة طفلك، فلن تتمكن من أن تجدني في أي كتاب !

توقف عن الخوف مني، فلن أحاكمك ولن أنتقدك. أنا لا أغضب و لا أعاقِب. أنا الحب الخالص.

ملأتُ قلبك بالانفعالات، بالرغبات، بالأحاسيس، و بالحاجيات غير المنسجمة، و في نفس الوقت منحتُك الإرادة الحرة، فكيف يمكن لي أن أوبخك حين تستجيب لما وضعته أنا فيك؟

كيف يمكن لي أن أعاقبك وأنت على هذا الحال الذي جعلتُك عليه؟

هل تفكر بشكل حقيقي و واقعي، أنه يمكن لي أن أخلق مكانا لأحرق فيه كل أبنائي الذين تصرفوا بشكل قبيح، وإلى الأبد؟

أي نوع من الآلهة هذا القادر على أن يقوم بذلك؟

وماذا سيفعل بعد أن يُسكِن أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار؟

ابتعِد عن هذه الأفكار.

احترمْ المختلف، و لا تفعل ما لا ترضاه لنفسك.

كل ما أطلبه منك هو أن تنتبه لحياتك، وأن تكون إرادتك الحرة هي موجّهك.

أنت تُشكّل مع الطبيعة عنصرا واحدا، إذن لا تعتقد أن لك سلطة عليها، أنت جزء منها، اعتنِ بها وستعتني بك.

لقد جعلتُك حرا بشكل مطلق.

أنت حر في أن تخلق من حياتك جنة أو جحيما.

أنا لم أُقدّر لك سلفا أي شيء، فلا تُحَملني مسؤولية قراراتك لا سلبا ولا إيجابا.

أريدك أن تحبني لا أن ترتعد فرائصك مني. أخبِر أطفالك أنني أحبهم وأحنو عليهم، لا تهددهم بأنني سأخنقهم إن أخطأوا، أنا اللطيف الودود، لا المتجبر المتكبر الحقود.

توقّف عن الإيمان بي بهذا الشكل، فأن تؤمن يعني أن تفترض أن تتخيل و أن تتكهن، لا أن تتيقن بأفكار غيبية حشاها الأهل ورجال الدين في عقلك، على أنها الحق المبين، وما عداها هو الكفر الصريح.

لا أريدك أن تؤمن بي، أريدك أن تحس بي في ذاتك، حين تهتم بمن يحتاج إليك، حين تهتم بالحيوانات، بالنباتات، وحين تحتضن طفلك الصغير.

عبّر عن فرحك، و تعوّد على أن تأخد فقط ما تحتاجه.

إن الشيء الوحيد اليقيني هو أنك هنا، وأنك حي و أن هذا العالم مليء بالعجائب التي بإمكانك أن تتعرف على ما تحتاجه فيها.

لا تبحث عني بعيدا، فلن تجدني. إنني هنا. في الطبيعة، إن (الكون) هو أنا))).

عزيزي هارالد :الآن، بعد كل ما توصلتَ إليه بعقلك الناقد الممحّص الواعي، وبعد قراءة المخطوط، هل رأيتَ الله؟

التوقيع : هانس ديتر ستينوزا]].

سالت دموع هارالد على الصفحة فكتبَت : نعم رأيته، وها أنا أعانقه.

وهكذا يا سادة يا كرام، تمّت الرحلة على ما يرام، تمام التمام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب الأنام. ودعواتكم لعمّكم الحكواتي أبو بسّام ()()".

رنّ الهاتف، أجفل عبدو من نومه، فوجد نفسه تحت شجرة السرو في المقبرة، أمام قبرَي ساندرا و هانس ديتر ستينوزا، يُطوّق صدره بذراعيه.

أمسك الهاتف بيد، وخلع نظارته ماسحا دموعه بظاهر اليد الأخرى." أهلا أهلا أخي أبو شفيق."

****"يا زلمي وينك؟ جيت لعندك عالبيت جايبلك تذكرة السفر، قالولي إنك طلعت من ساعتين".**

++" تذكرة السفر إلى أين؟".

****"يا زلمي، شو إلى أين . معي ع سويسرا الشرق بيروت. شو نسيت؟**

++"لا لا ما نسيت، بس أنا سافرت لمحل أبعد بكتير وأروع بكتير من سويسرا الشرق ومن كل جنان الأرض".

****"بالله شو؟ عم تجدبها عليي يعني؟!".**

++" أنا فعلا سافرت".

****" اللهم ثبّت علينا العقل والدين، لوين سافرت؟".**

++"إلى الله، إلى الله، إلى اللاااااااه ".

****" عبدو، عبدوو عبدووو عبدووووووووووو.**

++" ــ.

//////////

تمّت .

.